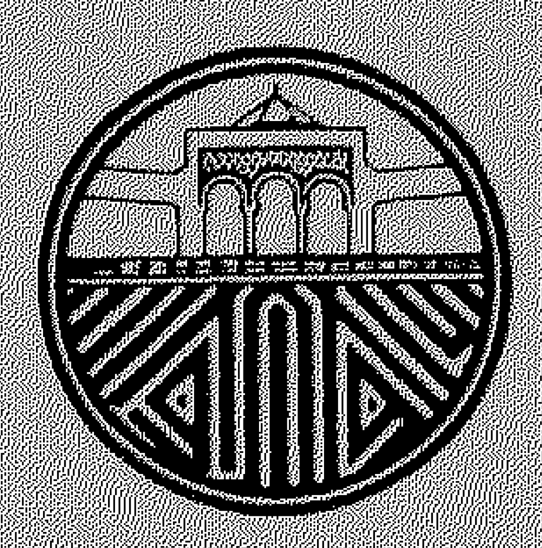
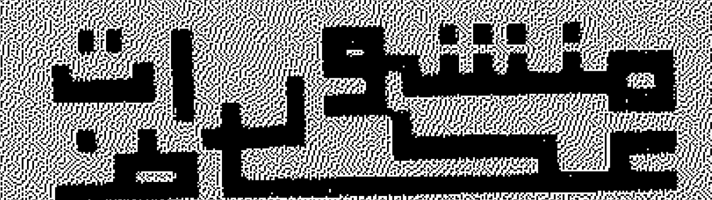
منشورات جمعية موظفي كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط

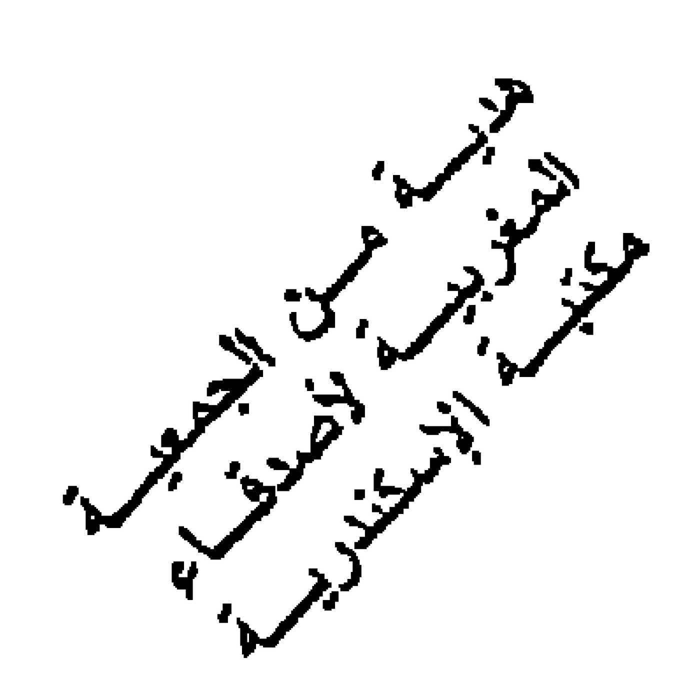


العلاقات بين المغرب وإفريقيا الغربية



إهـــــــداء2005
جمعية أصدقاء المكتبة
المغرب

منشورات جمعية موظفي كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط



العلاقات بين المغرب وإفريقيا الغربية

منشورات عكاظ

نقدم في هذا الكتاب أعمال ندوة العلاقات بين المغرب وإفريقيا الغربية التي نظمتها جمعية موظفي كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط في إطار أيامها الثقافية سنة 1987

أشرف على نشر وطبع هذا الكتاب السيد عبد الرحيم لطفي الشاوي رئيس الجمعية ، بمساعدة السيد أحمد ابن علي عضو مصلحة النشر بكلية الآداب بالرباط وتوجيهات الأستاذ محمد منيار الكاتب العام للكلية .

الرئيس الشرفي قيدوم الكلية السيد عبد الواحد بنداود

أعضاء مكتب جمعية موظفي
كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط

الرئيس	عبد الرحيم لطفي الشاوي
نائب الرئيس	حسن الصادقي
الكاتب العام	العربي قباب
نائب الكاتب العام	مصطفى بلهلالي
أمينة المال	زهور اربوح
نائب أمينة المال	عبد السلام الدراوسة

– المستشارون –

العياشي الزيتوني

بيهي بوفلجة محمد بنسعود

سيدي محمد الادريسي البوعناني الشريف الكحلاوي

المحتويات

تـقـديـم

تعتز الحضارة الأوروبية بدورها في اكتشاف العالم الذي كان مجهولا إلى نهاية العصر الوسيط ، وبالأخص اكتشاف القارة الأمريكية التي صار لها شأن كبير فيما بعد وتعتبر عملها في هذا الصدد بداية لنهضتها الكبرى .

لكن هنالك مجهود آخر كبير ومهم في ميدان استكشاف العوالم المجهولة ما زال لم يحظ باهتمام المؤرخين وتنويههم ونعني به استكشاف القارة الأفريقية التي كان يقتصر علم الأقدمين عنها على الخرافات والأساطير إلى أن جاء العرب المسلمون ابتداء من عهد الفتوح الاسلامية الكبرى في القرن الأول للهجرة ، فاخترقوا الصحراء الكبرى بجيوشهم وتعرفوا على البلاد وأقاموا محطات لقوافلهم وجيوشهم ، واحتكوا بعدد من الشعوب الزنجية .

وكان حافزهم في هاته الاتصالات الأولى هو تبليغ الدعوة الاسلامية . ومن دون شك أن اعتيادهم على الحياة في الصحراء العربية واحتكاكهم ببعض الشعوب الأفريقية عبر البحر الأحمر وخليج عدن سهل عليهم مثل هاته الاتصالات وشجعهم على المغامرة ولو كانت صعبة ومخيفة. ولكن يبقى أن ايمانهم بالرسالة التي كانوا يحملونها هو الذي دفعهم إلى التحرك وشحذ عزيمتهم وعلمهم الصمود والمثابرة مهما كانت الصعاب والمكاره .

واستقر المسلمون شيئا فشيئا على تخوم أفريقيا السوداء وتكاثر عددهم باعتناق أعداد من الزنوج للاسلام واختلاطهم بالفاتحين ونمت العلاقات وتنوعت بين العرب والأفارقة فلم تبق مقصورة على تبليغ الدعوة الاسلامية ، بل تحولت إلى الاهتمام بالمصالح الدنيوية ، أيضا ، فصار التبادل التجاري بينهم يستأثر بتحرك ونشاط كبيرين . وليس لدينا ، مع الأسف ، عن تلك البدايات كل ما نرغب فيه من تفاصيل ومعلومات . فالمصادر تكتفي بالاشارات المقتضبة ، وكأنها تعتبر أن الموضوع لا يستحق وقفات طويلة .

إلا أن الذي يمكن استخلاصه من الاشارات المبعثرة في عدد من الكتب هو أن المغرب الأقصى كانت له حصة الأسد في عملية استكشاف أفريقيا السوداء الغربية . فطرقه إليها ومنها ، هي أقصر الطرق وأسهلها سواء في محور سجلماسة – أوداغست أو في محور نول لمطة – أوداغست القريب من الساحل . وقبائل زناتة وصنهاجة التي كانت تتردد بين الجهتين كانت مرتبطة بالمغرب الأقصى جغرافيا واقتصاديا . والتقارير التي نجدها عند بعض الجغرافيين العرب مثل اليعقوبي وابن حوقل والبكري تطلعنا بصورة واضحة على مدى توثق العلاقات بين المغرب وأفريقيا الغربية . ونستخلص من كلامهم أنهم يتحدثون عن مرحلة متقدمة في تطور تلك العلاقات ، سبقتها مراحل لا نعرف عنها شيئا .

وطبيعي أن يرافق هاته الاتصالات مجهود استكشافي هو الذي نجد صداً له عند البكري في القرن الخامس الهجري والذي تواصل إلى ابن بطوطة في القرن الثامن والحسن الوزان في القرن التاسع ، وهذا قبل أن يبدو من الأوروبيين أي مجهود فعال في التعرف على القارة . وقصة الحسن الوزان تتضمن اعترافا ضمنيا بتقدم المغاربة وتفوقهم في المعرفة بالقارة السوداء . وإلا ، فلم اختطفه الايطاليون وهو في طريقه إلى الحج ، وساقوه إلى روما ، حيث طلبت منه الكنيسة أن يقدم لها تقريرا ضافيا عن القارة الأفريقية ؟

إن هذا المجهود الذي قام به المغاربة من أجل اكتشاف القارة السوداء ما زال في الحقيقة مجهولا وما زال عنوانا لبحث كبير لم يكتب بعد . واكتشاف قارة كانت مجهولة فيه خدمة للانسانية من جهتين :

1 – من جهة العلم . وهنا نجد أن المغاربة ملأوا ثغرة كبيرة ، فلولا ما أتانا به البكري والادريسي وابن زرع وابن خلدون وغيرهم ، ما كنا نعرف أي شيء عن تاريخ القارة ومجتمعاتها في العصر الوسيط .

2 – من جهة توسيع العلاقات البشرية ونشر الثقافة والحضارة ، إذ أن أفريقيا الغربية بعد انتشار الاسلام بربوعها اتخذت من العربية لغة ثقافتها فبرز فيها علماء كبار مثل أحمد بابا الثبكتي ، كما أنها تمرست في عاداتها بعدد من التقاليد المغربية وهو ما زال بارزا للعيان إلى اليوم .

فالمأمول ، إذن ، هو أن ينصب جزء مهم من البحث في الجامعة المغربية على موضوع العلاقات المغربية الأفريقية من هذا المنظور الذي يشرف المغرب ويشرف بعض الأعلام من علمائه ، لا بدافع ، الأنانية والافتخار الأجوف ، ولكن بإبراز الحقائق الواضحة بكل موضوعية . وفي هذا الاطار لا يسعنا إلا أن ننوه بمبادرة جمعية موظفي كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط التي عودتنا على إقامة الندوات المفيدة ، في موضوعات تمس بالمغرب من جوانب مهمة .

محمد زنيبر
كلية الآداب – الرباط

العلاقات بين المغرب وإفريقيا الغربية من خلال كتابي تاريخ الفتاش وتاريخ السودان(*)

أحمد التوفيق
مدير معهد الدراسات الافريقية - الرباط

أكتفي بالاشارة إلى بعض النقط لتوضيح الموضوع الذي نحن بصدده ، فأشير على سبيل السرعة إلى أن باحثا فرنسيا معروفا ، مختصا في هذا الموضوع اسمه ريمون موني Raymond Mauny كتب كتابا قيما مستخرجا من حيث المضمون من أعمال أثرية وتنقيبات بالدرجة الأولى ومن النصوص العربية بالدرجة الثانية عنوانه : اللوحة الجغرافية لافريقيا الغربية في العصر الوسيط . Tableau géographique de l'ouest Africain au moyen Age وضع فيه خريطة تيسر فهم الموضوع المتحدث عنه وتفسر ، كما هو دور الخرائط بصفة عامة ، الأشياء النظرية . هذه الخريطة مضمونها أن هذه المنطقة الغربية من إفريقيا يمكن لمن يبحث في تاريخها في القرون الوسطى وفي علاقتها مع ما كان يسميه الكتاب المسلمون بجزيرة المغرب ، أن يقسمها إلى .

(*) ألقي هذا العرض مرتجلا ونقل من شريط التسجيل .

أربعة مجالات :

في الجنوب مجال الغابات الذي يصعب الولوج إليه ، وفيه عوامل متعددة تنافي إمكانية الحياة ، ومجال ثان أنسب للحياة البشرية وأقل كثافة من حيث النبات يقع على هذا البحر الجاف الذي هو الصحراء ، ويقابله مجالان آخران هما : المجال المغربي الذي قامت فيه الحضارة الاسلامية ، ومجال في جنوبه قامت فيه واحات ، كانت عبارة عن مراصد العلاقات بين هذين المجالين .

إذن هناك مجال للثرواث ، وهناك مجال لاستهلاك هذه الثروات وللقيام بوساطة في المبادلات مع حوض البحر المتوسط وهنا ظهر بالضرورة هذا النشاط الحضاري المتولد عن الفتوحات الاسلامية في هذه المنطقة ، ترتب عنه تكاثف وتراكم ، لأن هناك – علاقات أقدم من هذا العصر – هذه العلاقات تطلبت قيام مراس للمبادلات في الشمال ومراكز في الجنوب على حافة من الغابات ، هذه المناطق الجنوبية قامت بالدرجة الأولى في حوضي نهري النيجر والسينغال بالتتابع مع انتشار من الغرب نحو الشرق لهذا المد الحضاري ولقيام الممالك والامارات والامبراطوريات .

فالمبادلات التي كانت بين هاتين المنطقتين والحضارات التي نسميها حضارة سودانية قامت على أساس هذه الديناميكية وعلى أساس هذه الضرورة ، بينما بقيت ممالك أخرى وثنية بالجنوب ، وبالتالي كانت هناك حركة ثقافية ترصد وتتسرب بالتدريج في الاتجاهين عبر القرون .

فإذا كانت الفتوحات الاسلامية قد انطلقت من الشرق نحو المغرب بسرعة في القرن الأول الهجري . فإن ما وقع من ترسب ثقافي في غرب إفريقيا تأخر وتطلب عدة قرون .

هذه هي المعطيات التي تبينها هذه الخريطة بوضوح وهي ضرورية لكي يضعها كل باحث نصب عينيه لكي يفهم ماهي الدنيامكية التي خضعت لها العلاقات بين بلاد المغرب وبين غرب إفريقيا جنوبي الصحراء ، وكيف ظهرت حضارة مدن مهمة مثل تِنْبُكْتُو وكاغو إلى غير ذلك من المدن الشهيرة التي تظهر أوصافها بمثابة جزر وسط هذا العالم المتعدد العناصر .

سبق أن ذكر الأستاذان المحترمان إبراهيم حركات وعثمان بناني أننا لا نعرف عن هذا العالم أشياء تاريخية إلا عن طريق المسلمين إلى حدود الكشوف الأوروبية وهذا ما يؤكده بالفعل الكتاب الذي صدر في السنوات الأخيرة لجوزيف كيوك Joseph

Cuoq والذي عنوانه :

«Recueil de Sources Arabes de l'Afrique occidentale» في هذا الكتاب نجد بالاضافة إلى نصوص المؤرخين ، نصوصا من كتب الآداب وكتب الفقه ، وكتب التراجم وكتب المناقب إلى غير ذلك فوصل عددها إلى ما يقارب التسعين مصدرا . وهذه المصادر هي التي هيأت لظهور نوع جديد من المصادر يمثل له عادة بهذين الكتابين : كتاب محمود قعت الذي عنوانه **تاريخ الفتاش** وكتاب عبد الرحمان السعدي الذي عنوانه **تاريخ السودان** لم ينتج هذان الكتابان في بيئة غريبة بل هما ثمرة ترسب ثقافي حضاري طويل المدى في هذه المنطقة السودانية : دخول الاسلام ودخول اللغة العربية ودخول نمط من المؤسسات ومن الدولة انتهى بعد حوالي ستة قرون إلى قدرة المحليين – إن جاز التعبير – بأنفسهم على إنتاج باللغة العربية يمثلهم في التاريخ ، والتاريخ يكون عادة ، من أواخر المصنفات في الحضارات المتأثرة بالثقافة الاسلامية لأنه آخر العلوم المصنف فيها ويقال إن هناك كتابا آخر غير معروف ، يعرف اسمه فقط ألف في أواسط القرن الخامس عشر الميلادي لكننا لا نستطيع تأكيد هذا الخبر . أما **تاريخ الفتاش وتاريخ السودان** ، فقد كتبهما شخصان من تينبكتو ، هذه المدينة التي كانت الكتب فيها أغلى بضاعة في القرن السادس عشر ، وهذا يكفي دليلا على هذا الرواج الثقافي ، وهذا التهافت على النموذج الحضاري العام الذي تمثله العربية وتمثله الثقافة الاسلامية في هذا المجال السوداني ، وقد زاد من ذلك قيام إمبراطورية متسعة هي إمبراطورية مالي ثم ورثتها السنغاي ، فقد مرت قرون من الترسب الثقافي في هاته المناطق ، وقامت تنظيمات سياسية ، هذه التنظيمات السياسية أصبح لها أمراء ، وهؤلاء الأمراء ارتبطوا بعلاقات مع الشمال كانوا فيها وسطاء ، وتيسر لهم سبل حماية العلم ، حماية الكتاب والأدباء والفقهاء ، ومنهم هذا الدكالي الذي نقرأ عند ابن بطوطة قصة غريبة تتعلق به عادة ما يستغلها الأوربيون ضد هؤلاء الفقهاء الذين كانوا بناة الحضارة الاسلامية في السودان .

فمن هذه الامبراطوريات ، أمبراطورية السنغاي والأسرة الأسقية التي كان منها ملوك عظام في القرن الخامس عشر والسادس عشر حتى إن بعضهم ذهب في ركب مشهور إلى الحج فطبقت شهرته الآفاق وتحدث عنه الكتاب ، ومن جملة ما قيل في ذلك ، إن مروره بالقاهرة تسبب في تضخم العملة لأن أسعار الذهب سقطت إلى نسبة بعيدة جدا عن النسبة العادية . فهذه الأمجاد التي قامت في مملكة سنغاي وجدت من يؤرخ لها بالضرورة ، ومن هؤلاء الذين أرخوا لها هذان الشخصان صاحب **تاريخ الفتاش** ، وصاحب **تاريخ السودان** .

بالنسبة لتاريخ الفتاش وعنوانه الكامل هو «*تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس*» وأظن أنه تاريخ الفتاش ..، إذ مهما كانت ثقافة الشخص لا يمكن أن يصنع سجعا من الشين والسين إلا إذا كان ينطق الشين سينا ، فصاحب كتاب **الفتاش** هو محمود كعت وهو محمود بلحاج المتوكل. عالم وقاض من الصومال مات قرب تينبكتو في فاتح محرم 1002 هـ موافق 27 شتنبر 1593 بعيد الفتح المغربي للسودان ، لا يعرف بالضبط تاريخ ميلاده رسميا ، وإن كنا نجد مثلا في كتاب مدرسي واسع الانتشار في إفريقيا الغربية أن تاريخ ميلاده هو سنة 1468 ، فإذا ولد سنة 1468 ومات في 1593 فعمره أكثر من 120 سنة ، وقد ذهب بعضهم إلى القول بأن ميلاده ، وإن كان غير محدد وقع في عهد أسقيا الحاج محمد الأول الشهير الذي حكم بين سنة 1493 و 1528 .

أما بقية حياته فلا تعرف منها إلا بعض الجزئيات المتناثرة في **كتاب الفتاش** أو في **كتاب تاريخ السودان** للسعدي ، ومن أساتذته أحمد بن محمد بن سعيد المتوفى سنة 1568 وهو عالم علم في تنبكتو ابتداء من سنة 1553 لأن هؤلاء الملوك الماليين والسنغيين كانت لهم حماية للأدب كما قلنا وقربوا كثيراً من العلماء وقامت مدارس هناك غارت منها بعض المدارس في البلاد الاسلامية . نال محمود كعت حظوة عند أسقيا داود الذي جاء بعد أسقيا محمد بل ربما تزوج إحدى بناته . وكان قاضيا في تِنْدِرْمَا وهي مدينة في حوض النيجر جنوب البحيرة الشهيرة المعروفة ب باتي . Paty

هذا ما يمكن قوله بالنسبة لحياة محمود كعت صاحب **تاريخ الفتاش** . أما بالنسبة للسعدي ، فهو عبد الرحمان بن عبد الله بن عمران بن عامر عرف أيضا ، بأنه مؤرخ مملكة سُنْغَاي وأنه من أسرة عريقة في العلم بتينبكتو حيث ولد في فاتح جمادى الثانية عام 1596 أي بعد وفاة صاحب كتاب الفتاش حسب التاريخ الرسمي .

تلقى هذا الأخير وهو السعدي عن مشايخ منهم أحمد بابا التنبكتي الشهير وعمل في دييني Dienne المدينة التي كانت تنافس تنبكتو في الاشعاع الثقافي والرواج التجاري ، ثم صار إماما لمسجد مدينة الغرباء لأن المدن الافريقية ، نظرا لهذه البنية التي تحدثت عنها ، ولهذه الضرورات ، كانت في الغالب مدينتين مدينة للغرباء وهم التجار والفقهاء ، ومدينة للأهالي وهم في كثير من الأحيان ظلوا على وثنيتهم . كثيرا ما يريد الأوروبيون بصدد حياة السعدي أشياء يبرزونها وهو أنه وقع ضحية مضايقات من أحد الباشوات المغاربة وكان حاكما بدييني ، ومع ذلك يضطرون إلى

القول بأن الباشا المغربي الأعلى الحاكم في تنبكتو سرعان ما أنصف هذا الرجل ، بل إن أحد الباشوات قد استكتبه وهو محمد بن محمد بن عثمان وظل في منصب الكتابة العليا أو القلم الأعلى حيث عمل لعدد من الباشوات الآخرين وصاحبهم في عدة رحلات مما وسع آفاقه وجعله يقرر إنجاز مشروعه وهو كتابة التاريخ الذي سماه **بتاريخ السودان** ، وتطرق في هذا الكتاب ، بالاضافة إلى تاريخ ملوك سنغاي ، إلى عدد من القبائل في مالي والتوارك ، وعلى الخصوص تاريخ مدينة ديني و تينبكتو ، وأدخل فيه عدداً من الملاحظات المتعلقة بالعادات على شكل استطرادات وهي كلها أشياء مفيدة جدا للمؤرخ ، كما تحدث في فصله الأول عن علماء تنبكتو على غرار أستاذه أحمد بابا السوداني في نيل **الابتهاج بتطريز الديباج** ، ثم قام بعرض تاريخي ذكر فيه أخبار الحكم الاسلامي على عهد بعض الخوارج وعلى رأسهم علي السني المعروف في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، ثم ذكر بعد عهد الأمراء التابعين للسنة ، لأن التوتر عادة ما يولد المساجلة ، والمساجلة جزء من التاريخ ، بل إن التاريخ في كثير من الأحيان هو ظهر لعملة المساجلة ، فلما كانت هناك مشكلة مذهبية في داخل الاسلام ، بالاضافة إلى المشكلة المذهبية الأساسية وهي الاسلام في مواجهة الوثنية فلا بد أن يكون هناك من يرقى على هذه الأمجاد ويبني أمجادا أخرى .

في هذا الجو الحضاري الذي توفرت له الوسائل السياسية وتوفر له الاطار الثقافي وتولدت فيه معارك ومساجلات تولدت كتابة التاريخ من الداخل كما يقول الأوروبيون الذين يعطون للحديث عن هذين المؤرخين نبرة وطنية وكأن الخلفية الضمنية لهذه النبرة في الكتابات الأوربية هي إظهار الأفارقة اتجاه غزاة وهم المغاربة .

كتاب السعدي توقف في أواسط القرن السابع عشر سنة 1653 ثم أضيفت له لائحة في غد تحريره بأسماء عدد موظفي الدولة ، ومن هنا يعتبر تاريخا مهما لذلك الامتداد المغربي في السودان ، وله ملحق آخر ذكرت فيه الحوادث التي طرأت إلى غاية ثلاث سنوات بعد ذلك .

ثم قام مؤلف آخر مجهول ، وإنما يعرف من ناحية جده الأمير محمد بن سويو المولود في تينبكتو كذلك ، بمتابعة هذا العمل وأضاف إليه .

هذا ما يمكن ذكره باختصار فيما يتعلق بترجمتي محمود كعت صاحب كتاب **تاريخ الفتاش** ، وعبد الرحمان السعدي صاحب كتاب **تاريخ السودان** ، فكلاهما من تينبكتو وكلاهما ألف في أمجاد السنغاي وكلاهما ضمن كتابه كثيرا من

المعلومات ، ثم إن النصين المنشورين من طرف هوداس Houdas في بداية هذا القرن مستخرجان من عدة نسخ مخطوطة وجدت هنا وهناك . هذان النصان سواء تعلق الأمر بتاريخ الفتاش أو بتاريخ السعدي ليسا خالصين لهذين الكاتبين بل فيهما أياد أخرى . فكتاب السعدي فيه مادة مهمة عن الوجود المغربي في السودان ، وكثيرا ما استغلت هذه الكتابة استغلالا من طرف المحللين الأوربيين ، فالأمر لا يتعلق بمدى استفادتنا من هذين الكتابين بقدر ما يتعلق بالحالة التي وصل إليها استغلال المادة الموجودة فيهما استغلالا علميا ، لأن الاستغلال العلمي لأي مادة تاريخية كما يعرف الجميع ، تسبقه خطوات نقدية تتعلق بالنص وبتكوينه ثم بالمصادر والظروف المحيطة به ، وبعد ذلك ينتقل الأمر إلى استخراج النتائج بكامل التحفظ المعروف عند المؤرخين ، وأن هذه الحالة قلما ينتظرها الذين يكتبون كتابات ذات أهداف ، ومن أمثلة ذلك فيما يتعلق بكتاب **تاريخ السودان** صفحة 142 حيث نجد نصا منبثا في عدد من الكتب المدرسية لافريقيا الغربية . هذا النص ، من بين النصوص الكثيرة لا يتحدث عن حالة السودان قبل الفتح المغربي وبعده .

ماذا يقول هذا النص ؟ يتحدث عن «ولاية الأسعد المبارك أمير المؤمنين الأسقية الحاج محمد بن أبي بكر . ويذكر من عدله وشدة حكمه الشامل العام الذي كان ينفذ في دار سلطنته كذلك ينفذ في أطرف مملكته من حد أرض دنده إلى حد أرض الحمدية ومن حد أرض بُنْدُكْ إلى تِغازة وتوات وما في أحوازها ، فتغير الجميع حينئذ وسارت الأمن خوفا والنعمة عذابا وحسرة ، والعافية بلاء وشدة ودخل الناس يأكل بعضهم بعضا في جميع الأمكنة طولا وعرضا بالاغارة والحرابة على الأموال والنفوس والرقاب فعم ذلك الفساد وانتشر وبالغ واشتهر فأول من بدأ فيها سنب لبدو وصاحب ذلك . . . »

يعرف الجميع أن المغاربة وجدوا عندما وصلوا أن سنغاي دولة الأسقيين كانت تعاني من مشاكل داخل الأسرة الحاكمة ومشاكل أمنية داخلية ومن مشاكل ظرفية انتهت بها إلى المواجهة مع إمارات وثنية كانت لها معها مصالح متناقضة ، يذكر النص أعلاه المواجهة التي بدأت مباشرة في هذا الظرف ، فيتحدث عن أسقيا الحاج وهو في القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر وعن مجده كفترة مثالية ثم يتحدث مباشرة عن هذه الحالة السائدة في عهده ؟ أي بعد أن هجم الوثنيون بقية إمارة سنغاي وأحدثوا الفساد في الأرض بعد المجد الذي عرفته سنغاي في عهد الأسقيا الأول ، أي في أواخر القرن الخامس عشر وبداية السادس عشر ويقارن بينه وبين الحالة الموجودة في بداية السابع عشر ، يقول النص : إن أول من بدأ بالحرابة؛ أي

بإحداث الفساد سنبا «فأهلك كثيرا من بلاد رأس الماء وأكل أموالهم على الاطلاق وقتل من قتل واكتسب من كسب من الأحرار وكذلك الزغرانيون أتلفوا بلاد برا وبلاد قرما كذلك . وأما أرض الجني فقد أتلفها كفار بربرة شرقا وغربا يمينا وشمالا إتلافا قبيحا شنيعا وخربوا جميع البلاد ونهبوا جميع الأموال واتخذوا الحرائر جواري وتناسلوا معهن فكانت الذراري مجوسيين» . هنا مواجهة بين الوثنية وبين الاسلام يتحدث عنها الكتاب السالف الذكر .

أما في الكتاب الذي ألفه «سكيني مودي سيسكو» Sekene Mody Sissoco بالفرنسية عنوانه *«تاريخ إفريقيا الغربية»* فنجد هذا النص بالعنوان التالي : السودان قبل دخول المغاربة وبعد دخولهم . فيذكر وصف الخراب دون أن يذكر بقية النص حيث يذكر المسئولون عنه ، هنا يسكت النص الفرنسي ليترك الأطفال والتلاميذ يقرأون أن المسؤول عن هذه الكارثة هم المغاربة .

إن من القضايا المتعلقة بالنصين المذكورين مشلكة تحقيق النص إذ ينبغي أن تجري عليهما عمليات نقدية قبل استغلالهما ، مثلا في هذا الكتاب المدرسي قلت لكم إن عمر محمود قعت هو مائة وعشرون سنة أي أنه ولد في عهد محمد أسقيا الأول قبل ولايته في أواسط القرن الخامس عشر ومات في نهاية القرن السادس عشر . ففي سنة 1971 قام أحد الأنجليز المختصين في الدراسات الافريقية واسمه «لفسيون» بنشر بحث نقدي حول هذه المسألة :

Levtsion, A Seventeen Century chronical, by Ibn Moktar, a critic study.

وهو بحث نشر في :

Bulletin of school of oriental and African Studies, 1971, p. 571 - 593.

فينتهي إلى أن كاتب تاريخ الفتاش ليس هو محمود كعت ، بل هو شخص اسمه ابن المختار . من هو ابن المختار هذا ؟ لا تتوفر عنه معلومات ، لكن المختار هو حفيد محمود كعت من بنته التي تزوجها شخص اسمه المختار . محمود كعت خلف ثلاثة أبناء وبنتاً ، بنت نعرفها عن طريق هذا الشخص ، والأبناء الثلالة نعرفهم من الاضافات التي أضافوها إلى كتابه . لما كان هوداس Houdas ودولافوس Delafosse ينقبان عن النصوص العربية في غرب إفريقيا وجدا لهذا الكتاب عدة مخطوطات ، منها نسخة هوداس هي مخطوطة أ . ومخطوطة ب ، ومخطوطة ج بعضها تام ، وبعضها ناقص . وقابلها هوداس مقابلة علمية – وهذه هي المسألة المنهجية التي يجب أن نقف عندها – بأرقام وأثبت كل ما ورد فيها حسب اجتهاده . لما وقعت في يد هذا الباحث الأنجليزي في الستينات لأنه نشر كتابه سنة 1971 ،

استغل هذه المقابلة العلمية واستخرج منها نتائج باهرة ، فعندما يحقق المخطوط وتراعى في مقابلة نسخه قواعد علمية فإن ذلك يؤهل الآخرين لمزيد من البحث الدقيق الذي ينتهي إلى نتائج إيجابية ، هذه النتائج الايجابية بالنسبة للفتسيون هي أن نسخة ج هي أكمل هذه النسخ باختصار ، وأن ما تتضمنه من أخبار لا يمكن أن يكون كتب في عهد أسقيا الحاج الأول وأن هناك إضافات أخرى لأشخاص مختلفين بالضرورة ، لأن المقابلة النقدية للمضمون ، بالاضافة إلى الالتزام بمصادر النص من حيث النسخ وأماكن وجودها مكنته من إدراك هذه الغاية فيبين أن هذا الكتاب إذا بدأ فيه شخص اسمه محمود كعت فربما كان هناك محمود كعت أسبق من محمود كعت الذي عاش في القرن السادس عشر .

هذه المسألة بدأت منذ عهد الأسقيا محمد الحاج الأول الكبير ، ومعلوم أن هذا الرجل – أسقيا محمد الحاج – قام برحلة إلى الحج ، ويقال إنه التقى بالسيوطي ، وأن السيوطي أخبره بأنه سيكون أحد الخلفاء ، وأن الخليفة الثاني عشر على مذهب الشيعة سيظهر في هذه البلاد وسيكون هو الخليفة المهدي المنتظر ، بقيت هذه القصة في أذهان الناس يتوارثونها إلى بداية القرن التاسع عشر ، فاحتد الصراع لا بين المسلمين والوثنيين فقط ، بل احتد بين أنصار الطرق ، بين أنصار المذاهب ، بين القادرية وغيرهم ، ويرى «ليتسيون» أن أحد القادريين وهو أحمد ولوبو هو الذي عمل على فبركة هذا النص الجديد بكامله ، وأضاف إليه أشياء من تلك الرواية الشفوية التي تنسب إلى أسقيا محمد الأول أنه مبشر بأنه سيكون الامام المهدي ، لأن هذه الدعوة استعملت في محاربة خصومه المسلمين من طائفة أخرى .

فهناك إذن خلفيات ايديولوجية ، وهذه الخلفيات الايديولوجية استعملت الاطار الاسلامي للنزاع على مشروعية الحكم ، فهناك إذن علاقة بين تقنيات بناء النص وعلاقة بين الخلفيات التاريخية ، وكل هذا وارد في بحث «ليتسيون» ومن المفيد للمهتمين بتاريخ إفريقيا أن ينصبوا على دراسته دراسة جيدة ، حتى ولو كانت نتائجه إشكالية إلى حدما ، فمنهجية استعماله للنص ونقده شيء مفيد جدا ، ولهذا البحث اختصار في المجلة الشهيرة التي تصدر بدكار Bulletin de l'I.F.A.N, Serie B لسنة 1971 ، فيه عرض يختصر هذا البحث لنفس المؤلف يمكن الرجوع إليه ، وفيه تشكيك كذلك في مؤلف كتاب السودان .

هذه معطيات سريعة تتعلق بظروف كتابة هذين المؤلفين وبمضمونهما وباستغلالهما من طرف الكتاب ثم ببعض الحيثيات المحيطة بكتابهما «فليفتسيون» ينتهي إلى هذه النتيجة في الأخير فيقول :

«يظهر الآن جليا بأن هذين الكتابين الأساسيين في تاريخ تنبكتو وهما **تاريخ الفتاش وتاريخ السودان** كتبا تقريبا في نفس التاريخ ، وهو منتصف القرن السابع عشر ، ثم ينبغي إجراء دراسة أخرى من الداخل للعثور على الخلفيات الايديولوجية للصراع الذي أدى إلى نوع من الانتحال لبعض أجزاء النص وإقحامها فيه كجزء أصلي» .

العلاقات الثقافية بين المغرب وافريقيا الغربية خلال القرن الثامن عشر من خلال كتاب فتح الشكور

محمد حجي
كلية الآداب – الرباط

حقيقة أن الاطار العام لكلمتي هو ما ورد في العنوان الذي ذكره رئيس الجلسة إجمالا ، وإن كان هناك تعديل بسيط لأنني لم أسلم العنوان مكتوبا إلى اللجنة المنظمة ، وعليه ، فحديثي سيرتكز أساسا على كتاب «فتح الشكور في معرفة أعيان علماء التكرور» الذي يعالج مسألة الحياة الثقافية في غرب افريقيا خلال القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي . لذلك يصح العنوان بإضافة عبارة : من خلال كتاب «فتح الشكور» .

رأيت من المناسب قبل اقتحام الموضوع أن أوطيء له بتمهيد خفيف حول ما تعارف عليه المهتمون بتاريخ العلاقات بين شمال الصحراء وجنوبها من اعتبار القرن الثامن عشر عصر فترة ركود أو عهد فراغ وانقطاع نظراً لندرة المعلومات عنه بالنسبة لما قبله وما بعده ، إذ توافرت كتابات الرحالة والجغرافيين المسلمين عنها

في القرون السابقة ، بينما تكاثرت كتابات الأوربيين عن أفريقيا الغربية – والقارة عموما – منذ القرن التاسع عشر حين أخذوا يتحركون لاستعمارها واستغلالها .

أتساءل ، في نطاق هذه العلاقات ، عما إذا كانت الصلات قد فترت وركدت فعلا أو انقطعت بين المغرب وما وراء الصحراء في هذه الفترة فلم يعد هناك ما يستحق الذكر والتدوين ، أعني في الميدانين السياسي والاقتصادي ، متحاشياً الجانب الثقافي لأنه الذي يساق إليه الحديث في هذه العجالة ، ثم أثير الانتباه إلى عنصرين شاهدين لا جدال فيهما .

أولهما : أن الباشوات المغاربة في حوض النيجر كانوا أصحاب السلطة والنفوذ بين مد وجزر . منذ أقامهم السعديون هناك في أواخر القرن السادس عشر وظلوا ممسكين بزمام السلطة طوال القرون التالية إلى أن داهمتهم الجيوش الاستعمارية الفرنسية في نهاية القرن التاسع عشر ، واقتحمت عليهم حاضرتهم تنبكتو سنة 1894 م بعد حصار طويل مرير .

العنصر الثاني ، أن الدولة المغربية ظلت من جانبها ترعى شؤون الصحراء وتسهر على حماية سبل القوافل التجارية المترددة على بلاد السودان ، ولو أن ذلك كان أيضا بين مد وجزر بسبب الاضطرابات الداخلية العنيفة ، إذ الكل يعلم أن المولى إسماعيل قام في نطاق تحركاته الأولى غداة توليه الملك عام 1082 – 1672 بتفقد الصحراء التي كان يعتبرها جزءا من إقليم درعة ونقطة حيوية للاتصال بما وراءها ، وسلك نفس النهج ابنه مولاي عبد الله منذ أن بويع ، فاستقبل بفاس أهل توات وعين عليهم عاملا يرعى شؤونهم ، وكلفه بالحفاظ على قوافل الصحراء التجارية وحمايتها ممن يعترض سبيلها من عناصر التوارك ؛ كما أبدى سيدي محمد بن عبد الله نفس الاهتمام في أواسط القرن الثامن عشر حين وسع نطاق عمل قائد توات على ما حولها من واحات في اتجاه السودان . واستمرت عناية ملوك المغرب بالتخوم الصحراوية السودانية ، إلى ما قبيل فرض الحماية ، وما أمر استغاثة التنبكتيين بالحسن الأول لصد عادية الفرنسيين عنهم بسر .

أفلا يدل كل ذلك على أن عرى الاتصال المادي والسياسي لم تنفصم بين المغرب وغرب افريقيا في القرن الثامن عشر ؟ وظلت قائمة كالصلات الروحية والفكرية المتجلية في فتح الشكور .

ألف كتاب فتح الشكور أحد علماء ولاته النابهين – الخاملين في نفس الوقت ، وهو أبو عبد الله الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي المتوفي سنة

1219 / 1804 م . هذا العالم الذي لم يكد يعرف أحد عنه شيئا خارج مسقط رأسه أو يطلع على كتابه . فلم تذكره كتب التراجم المعاصرة له ولم يشر إليه أصحاب المعاجم والأعلام الكبرى الجديثة من عرب ومستشرقين ، إلا أن أحد تلامذة المؤلف كتب ترجمته بعد وفاته وألحقتها بآخر مخطوط فتح الشكور دون أن يذكر اسمه ، فرأينا عند نشر الكتاب أن نسجلها في طليعته .

نستشف من هذه الترجمة ومن الاشارات العديدة الواردة في ثنايا الكتاب أن أبا عبد الله الطالب محمد من أسرة تكرورية ، عريقة ، شهيرة بالصلاح ، لم يكن يشتغل بغير الامامة بمسجد ولاته والتدريس فيه للطلبة ، وتربية المريدين بتلقينهم ورد الطريقة الناصرية الذي أخذه عن الشيخ عبد الملك الركاني تلميذ الشيخ محمد بن ناصر الدرعي بواسطة ، فكان الناس يحملون إلى هذا المؤلف زكواتهم وهداياهم فينفق منها على نفسه وأهله بالمعروف ويصرف ما بقي في اقتناء الكتب ثم في حاجيات فقراء قومه .

ألف الولاتي ، بالاضافة إلى فتح الشكور ، كتباً أخرى لم نقف عليها وإنما ذكرها تلميذه في ترجمته ، منها **كتاب في التاريخ** ، وآخر في **نسب الشرفاء** ، ذرية مولاي الشريف ، ولعله جد شرفاء سجلماسة ، ملوك المغرب العلويين . فقد ورد في فتح الشكور غير ما مرة ذكر بعض هؤلاء الملوك ، خاصة مولاي إسماعيل بن الشريف وسيدي محمد بن عبد الله .

يحتوي كتاب فتح الشكور على أكثر من مائتي ترجمة لعلماء من بلاد التكرور أو ممن دخلها من غيرهم ، أو تتلمذ لهم أهل التكرور ، عاش معظمهم فيما بين 1650 / 1800 ومنهم عدد من المغاربة – كما سنرى – ظل هذا الكتاب مخطوطا مجهولا تقريبا إلى أن تحدث عنه المستشرق الأنجليزي هانويك «HUNWICK» في أواسط الستينات بمجلة البحوث الصادرة عن قسم المخطوطات العربية بمركز الدراسات الافريقية في جامعة ايبدان بنيجريا . واعتبر هذا الكتاب ذيلا لكتاب أحمد بابا **نيل الابتهاج** ، **وتاريخ السودان** لعبد الرحمان السعدي . وقد أطلع على هذه الاشارة الأستاذ محمد ابراهيم الكتاني ، فعمل على استحضار بعض نسخ هذا المخطوط ، وعملت كذلك بدوري على استحضار نسخة أخرى من نواكشوط ، واشتركنا في عملية تحقيق هذا الكتاب ، اعتماداً على هذه المخطوطات ، ونشرته دار الغرب الاسلامي في بيروت سنة 1981 .

يمكن تلخيص موضوع فتح الشكور ، في أنه يتحدث عن الحياة العلمية في بلاد التكرور خلال الفترة المشار إليها آنفا . ويحدد المؤلف في آخر المقدمة بلاد التكرور

بـ «أنه إقليم واسع ، ممتد شرقا إلى أدغال ومغربا إلى بحر زناقية وجنوبا إلى بيط وشمال إلى أدرار» . هذه الحدود معروفة – تقريبا – فبيط الذي جعله الحد الجنوبي لبلاد التكرور ، لم يكن معروفا عند الرحالة العرب القدامى ، لكن ورد ذكره عند صاحب الفتاش غير مامرة – بالتاء – بيت . وكان من أقاليم التخوم الجنوبية لامبراطورية مالي . وهو يعني ببحر زناقية المحيط الأطلنطيكي ، وبأدرار المنطقة المعروفة بهذا الاسم في الصحراء الشرقية جنوب توات . أما أدرار التي تعني الجبل بالأمازيغية فهي وإن تعددت إطلاقاتها في الصحراء لوجود عدة مرتفعات ، فإنه يقصد ، ولا شك ، أدرار تمار الواقعة في بلاد موريتانيا الحالية . وبذلك يمكن تحديد بلاد التكرور بالتقريب على ما جاء في فتح الشكور ، بالمنطقة الصحراوية السودانية الممتدة بين الخط 15° و 20° من خطوط العرض الشمالية ، وبين الخط 1° و 17° من خطوط الطول الغربية .

من المعلوم أن التكرور في الأصل مدينة قديمة كانت على ضفاف نهر السينغال واندثرت وبقي اسمها يطلق على منطقة مجاورة لها يبدو أنها كانت ضيقة ثم توسعت بعدما هاجر إليها حكام غانة البيض حين تغلبت عليهم شعوب السوناكي الزنوج أواخر القرن الثامن للميلاد . وظلت منطقة مستقلة عن مملكة غانة في تخومها الغربية متمعتة بعلاقات حسن الجوار مع القبائل المغربية المتاخمة لها في الشمال ، خاصة لمتونة وكدالة . في حين كانت هذه القبائل مثل أهل التكرور في نزاع دائم مع ملوك السوناكي الوثنيين إلى أن قضى عليهم المرابطون . وكانت بلاد التكرور في عهد إمبراطورية مالي تكون قسمها الغربي الذي يعد أهم الأقاليم الخمسة التي تتألف منها هذه الامبراطورية ، وبلغ من الشهرة والاشعاع بحيث أصبح إسم التكرور يطلق على مالي كلها ويدعى ملكها ملك التكرور . ومهما يكن من أمر ، فإن بلاد التكرور ظلت طوال العصر الاسلامي منطقة متميزة بالنبل والعلم والتجارة ، وكادت جميع صلاتها بالشمال تقتصر على المغرب الأقصى بحكم موقعها الجغرافي ووجود أسر صنهاجية كثيرة فيها .

أما الصلات الثقافية بين المغرب الأقصى وبلاد التكرور فترتكز على أربعة عناصر أساسية :

– المذهب المالكي ، والعقيدة الأشعرية السنية ، وقراءة نافع المدنية ، والطريقة الصوفية الشاذلية بشعبيتها الزروقية والجزولية . لن نتكلم بطبيعة الحال عن كل هذا بتفصيل لأنه ليس من شرطنا ، وإنما سنتحدث عن هذه العلاقات ، في نطاق ما ذكره أو فصل شيئاً منه صاحب فتح الشكور . ويمكن إجمال هذه العناصر في

ثلاثة محاور أساسية :

المحور الأول : **المادة الدراسية** التي تتشابه كثيرا فيما كان يدرسه التكروريون آنذاك في ولاتة وفي ودان وتشيت وغيرهما من المدن التي ينتسب إليها المترجمون في كتاب فتح الشكور ، وإن كان هناك أسماء كثيرة تعبر عن قرى ومداشر صغيرة . تتشابه المواد المدروسة في هذه المراكز الثقافية التكرورية وما كان يدرسه المغاربة في فاس ومراكش والمراكز البدوية . فالمادة هي هي تقريبا لغة وقواعد وتوحيدا وكلاما وفقها وأصولا وسيرة وتصوفا وحسابا وفرائض وفلكا . والكتب كذلك متشابهة مع الاقبال البالغ على **مختصر خليل** في الفقه المالكي ، بشروحه المعروفة ، المشرقية والمغربية ، مع إضافة بعض الشروح المحلية كشرح أحمد بابا والقاضي الطالب أبي بكر الولاتي المحجوبي ، واهتمام كثير بالنحو ، بقراءة الأجرومية – وهي كما تعلمون مغربية – وألفية ابن مالك . وهنا نلاحظ إقبال المغاربة بدورهم على مؤلفات السودانيين المتعلقة بقواعد اللغة العربية مثل **الفتوحات القيومية** الذي ألفه أحمد بن أندغ محمد التكروري السوداني ، هذا الشرح للأجرومية اشتهر في المغرب أيضا وعلق أحد علماء فاس وهو سيدي المهدي الوزاني وطبع مرارا على الحجر ، وكان ما زال يدرس بالقرويين إلى ما قبيل الاستقلال . هذه ظاهرة تستحق كثيراً من الكلام ، ظاهرة العطاء السوداني للمغرب . لأنه إذا كان هناك تبادل فهو تبادل من الجانبين

ورد في فتح الشكور ذكر كتب مغربية عديدة شغف بها التكروريون وتدارسوها وكتبوا عليها تعاليقًا وشروحا ، منها كتاب **الشفا** للقاضي عياض السبتي ، وكتاب **دلائل الخيرات** لمحمد بن سليمان الجزولي ، و **منظومات** ابن سعيد المرغيتي السوسي في **الفلك** والتوقيت ، وابن عبد البر التازي في **القراءات** ، وأبي الحسن الزقاق الفاسي في **أحكام القضاء** .

والفتن التكروريون بصفة خاصة في التاريخ بالقصيدة اللامية المعروفة **بالفشتالية** لمحمد بن علي الفشتالي ، كاتب أحمد المنصور الذهبي ، نظم فيها وفيات **شرف الطالب** لابن قنفذ باختصار كبير ، ورمز للتواريخ بالحروف الأبجدية مبتدئا بوفاة الرسول – عليه السلام – والخلفاء الراشدين إلى عصره أي إلى أوائل القرن الحادي عشر الهجري / السابع عشر الميلادي . فعلاً كانت هذه المنظومة التاريخية ، في هذه المنطقة، بدعاً من التأليف ، فذيلها كثير من المغاربة كالمكلاتي وميارة الفاسيين وأضافا إليها أشهر أعلام عصرهما . وكذلك فعل التكروريون ، وضعوا لها ذيولا

عديدة مثل أحمد بن محمد بن موسى ابن إكل الزيدي ، والمختار بن الطالب سيدي أحمد .

المحور الثاني : الأسانيد العلمية لعلماء التكرور التي تتصل بأشهر علماء المغرب ، الأمر الذي يؤكد ما اعتاده التكروريون من الطلوع إلى المراكز العلمية المغربية للاغتراف من ينابيعها ، ولم يكونوا يقفون عند المراكز التي على مشارف الصحراء في سوس ودرعة وتافيلالت وإن كانت هذه هي الغالبة – وإنما كانوا يتوجهون إلى مراكش وفاس وغيرهما من المراكز الواقعة في الشمال . ونسجل من خلال كتاب فتح الشكور ظاهرة تعد من المفارقات البارزة بين علماء التكرور وعلماء المغرب ، وهي قلة الفهارس العلمية بل انعدامها عند علماء التكرور ووجودها بكثرة عند علماء المغرب ، خاصة في القرن الثامن عشر ، بحيث لا نجد في فتح الشكور ذكراً لأي فهرس باستثناء **فهرس محمد بن يعقوب** ، وهو مراكشي استفاد منه بالخصوص أحمد بابا في مؤلفاته الموضوعة في التراجم . وعن طريق هذا الفهرس استفاد المؤلفون السودانيون والصحراويون . ومعلوم أن هذه الفهارس تساعد كثيراً في معرفة الحركة الفكرية في بلد ما ، تصل أحيانا إلى وصف الحياة الاجتماعية للأساتذة والطلبة ، ففيها نجد أوقات الدراسة والكتب المدروسة والكراسي العلمية وأمهات المدارس والمساجد التي تلقى فيها الدروس ، والأوقاف المخصصة للأساتذة والطلبة . بل نعرف منها الخريطة التعليمية لمدينة أو قرية أو إقليم . وكأن مؤلف فتح الشكور شعر بنقص الفهارس عند مترجميه فسد ذلك الفراغ بما ذكر من أحوال العلماء الذين ترجم لهم ومشايخهم ومؤلفاتهم والوظائف الدينية والعلمية التي شغلوها في بلدهم .

ومن نماذج الأسانيد العلمية المغربية في كتاب فتح الشكور سند محمد بن الحاج عثمان بن السيد بن الطالب صديق الجماني ، وهو المترجم رقم 100 ، ففيه نجد مثلا في قراءة الامام نافع أخذها – كما قال – «عن الامام المحقق أستاذ المغرب كله بل أستاذ الدنيا كلها» ، فمن هو هذا الأستاذ ؟ إنه عبد الرحمان بن القاسم بن القاضي المكناسي الفاسي ، وهو أخذ عن شيخه عبد الرحمان بن عبد الواحد ، عن الشريف المريي الأندلسي الفاسي ، عن القاسم بن إبراهيم الدكالي ، عن الامام ابن غازي الذي يعتبر شيخ الجماعة في المغرب في القرنين التاسع والعاشر للهجرة . مثال آخر في كتاب **الشفا لتعريف حقوق المصطفى** للقاضي عياض . أخذه هذا الشيخ المترجم عن الحاج عبد الله بن محمد بن أحمد بنعيسى المغربي عن الامام محمد بن مَحمد أبي بكر الدلائي ، عن والده عن إمام فاس محمد القصار .

المحور الثالث : الأسانيد الصوفية لكبار شيوخ بلاد التكرور . فعلاوة على أن التصوف التكروري مثل التصوف المغربي شاذلي عموما ، زروقي جزولي خصوصا ، فإننا نجد في فتح الشكور صورا عديدة لمجالس المتصوفين في زواياهم ومساجدهم ومجالسهم الخاصة ، لا تكاد تختلف عن مجالس المتصوفين في المغرب الأقصى ، كزاوية الفاسيين ، وزاوية الدلائيين ، وزاوية الناصريين . فهم هنالك يقرأون الأوراد المتركبة أساسا من الاستغفار والهيللة والصلاة على الرسول الكريم بصيغ متعددة ، ونجد بعض صيغهم موافقة تماما للصيغ المذكورة في زوايا المغرب ، ويداومون ، أيضا ، على قراءة أحزاب الامام الشاذلي **وأسماء الله الحسنى** لابن عباد الفاسي **ودلائل الخيرات** لمحمد بن سليمان الجزولي .

ومن أشهر شيوخ التصوف في بلاد التكرور – حسب ما جاء في كتاب فتح الشكور – عبد الملك بن عبد الله الغزالي الشريف الحسني ، أخذ عنه المؤلف وعقد له ترجمة حافلة ربما تكون أطول ترجمة في الكتاب وهي تحمل رقم 198 . كان إشعاع هذا الشيخ يصل إلى توات وما وراءها من بلاد الصحراء الشرقية ، كما كان أبوه عبد الله شيخا صوفيا شهيرا ، أخذ الطريقة الناصرية عن شيخ المغرب الشرقي مَحمد بن عبد الرحمن بن أبي زيان عن مبارك العنبري الغزواني عن الشيخ محمد بن ناصر الدرعي التمكرونتي . ويتصل سندا الشيخ ابن ناصر بالامام أحمد زروق الفاسي الذي يتصل سنده بالشيخ أبي الحسن الشاذلي الغماري تلميذ مولاي عبد السلام بن مشيش الادريسي دفين جبل العلم . إلى هذه المحاور الثلاثة الأساسية نجد في فتح الشكور إشارات عابرة كثيرة تؤكد الصلات الروحية بين المغرب وبلاد التكرور ، مثل التراجم التي خصصها المؤلف لطائفة من علماء المغرب بسبب ما كان لهم من صدى واسع بين علماء التكرور وصلحائهم ، ولو أنهم على ما يبدو ، لم يأخذ عنهم التكروريون مباشرة ، إنما تتلمذوا لهم عن طريق قراءة مؤلفاتهم أو بواسطة تلامذتهم . وفي مقدمة هؤلاء المترجمين أبو المحاسن يوسف الفاسي ، وابنه محمد العربي الفاسي ، وحفيده محمد المهدي الفاسي .

هكذا يأتي كتاب فتح الشكور ليسد ثلمة في صرح الثقافة الاسلامية المتواصلة بين شمال الصحراء في أرض المغرب وبين جنوبها ببلاد التكرور السودانية منذ أضاء نور الاسلام هذه البقاع وإلى ما شاء الله .

طبيعة العلاقات المغربية مع افريقيا الغربية
في العصر الوسيط

ابراهيم حركات
كلية الآداب – الرباط

المغرب أخ شقيق لافريقيا الغربية منذ ما قبل التاريخ ، فالأرض المغربية إلى جانب الصحراء الكبرى في رأس لائحة مناطق القارة الافريقية التي أعطت لهذه القارة أقدم سكانها وهم الزنوج ، فليس غريبا أن تبدأ العلاقات المغربية مع افريقيا الغربية من الانسان الموغل في القدم .

وفي وقت غير محدد ، ولكنه قبل الميلاد بعهد طويل كانت هناك علاقات تواصل بين الشمال وما وراء الصحراء . ودخل الجمل في العهد الروماني عن طريق عناصر سورية ليفتح آفاقا جديدة من التعامل في المجالات الانسانية والاقتصادية بعد أن أصبح الفرس أقل احتمالا لصعوبات المناخ وأعز وجودا .

وتبدأ معلوماتنا تتسع أكثر فأكثر ، مع دخول الاسلام إلى الشمال الافريقي .

فالسرايا الاسلامية تتوغل في السوس الأقصى الذي ينتهي في عرف ابن خلدون إلى الساقية الحمراء . ولا نعلم على التحديد أين وصل جيش موسى ابن نصير ، ولكنه كلف نجله مروان بإخضاع هذه المنطقة التي عاد منها بغنائم عظيمة وسبي وفير . وفي عهد الوالي العام عبيد الله بن أبي الحبحاب عين على السوس نجله إسماعيل . وهذا يحملنا على الاعتقاد بأن الطريق الرئيسي بين المغرب وإفريقيا الغربية كان في هذه الحقبة يمر بسوس والصحراء الغربية . وفي هذه الفترة قام حبيب بن أبي عبيدة ، حفيد عقبة بن نافع بالتوغل في مناطق مسوفة ، وبلغت سراياه السينغال . ويرى دونيزبُولْم أن هذه الحملة كانت الغاية منها هي مقايضة نسيج الشمال وملحه بذهب السودان وعبيده وصمغه . لكن الرواية الاسلامية إذا تحدثت عن الغنائم لا تذكر المقايضة ولا الذهب في هذه الحقبة على الأقل . وآخر ولاة افريقية في العهد الأموي توغلت جيوشه باتجاه أودغست عبر درعة وتندوف ، حيث حفرت آبارا في طريقها . ويتحدث البكري عن أعقاب الجيش الأموي بغانا وأفاد أنهم كانوا يعيشون في شبه عزلة عن الغانيين . وفي هذه المرة يتضح لنا وجود طريق صحراوي عبر تندوف يحتمل أن يكون متصلا بطريق سجلماسة ولو أن هذه المدينة نفسها لم يكن لها وجود . وكيفما كان الأمر فمرور الجيش إلى السودان لابد أن يكون من طريق مطروق . ومن جهة أخرى فإن الحملات الاسلامية اتسمت في هذه المناطق غالبا بالعنف . ودخول الاسلام تكتنفه الافتراضات فهناك من يجعل إسلام قسم من صنهاجة إفريقيا الغربية على يد عقبة وأن هؤلاء الذين أسلموا تولوا جهاد السودان من جيرانهم كما في روض القرطاس ، لكن لا نبالغ في إعطاء هذا الاسلام السوداني المبكر صبغة متكاملة ، فيكفي أن عبد الله بن ياسين ، وجد أوضاع صنهاجة في المجال الاسلامي تثير الغرابة . وعلى أي حال فقد تحكمت صنهاجة في طريق درعة غانا لفترات متفاوتة . غير أن ظهور الأدارسة أعطى نفسا جديداً للعلاقات المغربية السودانية ، فإن الأمير عبد الله بن إدريس الثاني أنشأ تامدولت التي قال عنها مؤلف الاستبصار إنها على رأس نهر درعة أي عند مصبه على المحيط وقال إن العمارة كانت متصلة بينها وبين درعة على مسافة ستة أيام سيرا ، وبالطبع فإن تامدولت فتحت علاقات مع غانا وهي علاقات اقتصادية ، كما أن الأدارسة قاموا بدور طيب في التوعية الدينية ، بل أن الأدارسة بشهادة ابن خرد اذ به مدوا نفوذهم السياسي إلى منطقة زاغة بالنيجر ، وابن خرداذ به يسميها بلاد زاغي بن زاغي(1) . وفي الواقع لم يهتم الأدارسة وحدهم بإفريقيا

(1) هم دون شك قبائل الزغاوة بقطر النيجر ، ويشير ياقوت إلى بلدا من مدنهم ، (وهي لاتزال ◄

الغربية فإن تاهرت الرستمية قامت بمهمة مشابهة عن طريق سجلماسة ووارغلة ، ولا يمكن أن نفهم من هذا أن حركة نقل العبيد كانت نشيطة في الأسواق الشمالية . فهذا النشاط سيتخذ أبعاداً جديدة مع المرابطين ، ولاريب أن مدينة كاغو العريقة جذبت إليها تجار الذهب في العهد الادريسي . والحميري يقول عنها بعد أربعة قرون إنها أكثر بلاد السودان ذهباً . وتجارة الذهب لم تشمل الشمال الافريقي وحده ، بل الأندلس أيضا . وفي هذه الفترة الموازية للعصر الادريسي بلغت غانا حدا من الترف بسبب مواردها من تجارة الذهب . وكانت القوافل المغاربية خلال العصر الوسيط تتجه إلى مراكز النخاسة خصوصا بنهر السنيغال حيث تصحب الرقيق وتقتني كميات من الذهب والعاج . وفي أواسط القرن العاشر الميلادي كانت أودغست عاصمة غانا تابعة لزعيم صنهاجي ذكر مؤلف الاستبصار أن منطقة نفوذه امتدت عبر مساحة شهرين في مثلها ، وهي مسافة تعادل مليون كيلو متر مربع تقريبا وكانت عمارتها متصلة كما قال .

ويبدأ التعرف أكثر فأكثر على مناطق السودان بعد ظهور عبد الله بن ياسين . وهذا على الأقل ما يرجحه الحسن الوزان الذي يرى أن هذا التاريخ هو منطلق للتعرف على هذه المناطق ، وهذا بالطبع يخالف الحقائق التاريخية السابق ذكرها . وإذا كان المرابطون قد عملوا على نشر الاسلام لدى جيرانهم الأفارقة فإن ذلك فتح باب التواصل البشري والاقتصادي على أوسع نطاق بين الشمال والجنوب ، حتى إن تجار الشمال أخذوا يتعلمون لغات السودان كما قال الحسن الوزان .

واتخذ المرابطون في جيوشهم عددا كبيرا من السودان . والواقع أن العنصر السوداني شارك في الفتوح الأولى للأندلس . ولكن لا نعلم إذا كانوا من سودان الغرب أو إفريقيا الوسطى . وفي معركة الزلاقة وحدها ساهم ما لا يقل عن عشرة آلاف منهم ، بل يمكن القول بالتأكيد أن فرقة الرماة منهم كان لها دور حاسم في الانتصار الاسلامي . وقبل المرابطين كان العنصر السوداني مع الحموديين الأدارسة بالأندلس ، فضلا عن وجودهم لدى الزيريين والحماديين . وتحكم العنصر الصنهاجي بشكل حاسم ولعدة قرون في الطريقين الصحراويين ، المار أحدهما من سجلماسة إلى مالي ثم النيجر ، والثاني من السوس الأقصى عبر الساحل باتجاه غانا . ولهذا الغرض كانت سجلماسة أول مركز قصدته الهجومات المرابطية . كما أن

◀ موجودة) . ويذكر ياقوت (مادة زغاوة) نقلا عن غيره أنهم كانوا شعبا يعبد ملوكه ويعيش على الزراعة .

وتحدث الوزان عن زاغ زاغ (الطبعة الفرنسية ص 477 وانظر تعليق Epaulard نفس الصفحة)

المرابطين اعتنوا بمدينة نول لمطة وهي غير بعيدة من تامدولت التي بدأت تتخلى عن مكانها للمدينة المذكورة التي تحدث عن أهميتها غير واحد من الجغرافيين لا سيما مؤلف الاستبصار .

ويبدو الانتشار الاسلامي بغانا واضحا من خلال التأثير المرابطي خلال القرن الحادي عشر ، فحتى العاصمة الغانية تكونها مدينتان إحداهما خصصت للمسلمين الذين يتوفرون على مساجد كثيرة فضلا عن مسجد آخر داخل المدينة الوثنية الغانية . وينسب Basil David Sun غانا أو بالأصح عاصمتها الأولى إلى جماعة من يهود سوريا الذين استوطنوا المنطقة خلال أواخر القرن الثالث للميلاد ، ولا يمكن تحديد مدى صدق هذه الرواية ما لم تكن قد تناولتها وثائق لاتينية أو عبرانية .

وأتاح التوغل المرابطي والصنهاجي عموما في الأقطار والمواقع التي تتوفر على الذهب إمكانية حصول المرابطين على كميات غير قليلة من هذا المعدن الثمين ، وهكذا يتحدث البكري عن دنانير الذهب الخالص التي كانت تتعامل بها تادمكة الصنهاجية ، كما أن العملة الرائجة في عموم المناطق المرابطية كانت لها قوة رواج خارجها لصفائها . وخلافا لما هو متعارف من أن أقطار السودان ظلت تتعامل بنظام المقايضة حتى بزغ نجم الاستعمار ، فإن المكوس التي وضعتها الدولة الغانية على الملح والنحاس والأمتعة كانت بعملة مسكوكة من الدنانير والمثاقيل ، وهذا ما سجله البكري في القرن 11 م واعتبر ذهب غانا أجود الذهب . ومعلوم أن الاندلس كانت تحصل على الذهب إما عن طريق تجارها أو من طريق المغاربة وكيفما كان الأمر فالبكري الأندلسي كان يعرف جيدا ما يروج في وطنه . ثم إن غانا أممت في هذا العصر مناجم الذهب ، وهذا شبيه بما اتخذه الفاطميون من إجراءات بالنسبة لذهب النوبة . ولم يكن الاستغلال العمومي مسموحا به إلا بالنسبة لدقيق التبر ، وذلك حتى لا يكثر الذهب لدى الجميع فيقل الطلب عليه وتنزل قيمته . وكانت غَيارُوا على ضفة النيجر أهم مناجم غانا ذات الذهب الجيد .

كان الدور الصنهاجي بالغ الأهمية في ربط العلاقات بين الشمال والجنوب ، وبدون الوساطة الصنهاجية كانت العلاقات ستبقى في نطاق محدود بين الشمال والجنوب ، وذلك أن المرابطين حكموا الشمال وأضافوا إليه الجزيرة الايبيرية التي هي مستهلك ذوا أهمية في ذلك الوقت سواء شقها المسيحي أو الاسلامي . ثم إنهم راقبوا في النهاية ، الجزر الشرقية التي فتحت لهم طريق الجزر الأوروبية الأخرى كسردانيا وصقلية ، وبذلك حلوا إلى حد كبير ، محل وسطاء مغاربة وغيرهم . والأهم من هذا أننا نرى العنصر السوداني لا يتحرك نحو الشمال لذاته إلا بشكل

محدود . فهو يُستقدم بثراء للعمل في الجيش أو لخدمة الحكام ، وحتى في الجيش لا نرى ضباطا كباراً يبرز دورهم في المسؤوليات العليا من بين أفراد هذا العنصر ومع ذلك فهذا العنصر يؤدي دورا جليلا في موقعة الزلاقة وفي حماية الحصون الأندلسية قبل ذلك وبعد ذلك (كانت غرناطة التي حكمها بنوزيري قبل المرابطين تتوفر على حامية سودانية كما يذكر ابن الخطيب في الاحاطة) .

وإذا كان المرابطون قد راقبوا طريق غانا المار من درعة ، فإن طريق الصحراء الغربية احتفظ بمكانته بل ازدادت هذه المكانة قوة ، فقبلهم كان التجار الهواريون من أغمات يتوجهون إلى أقطار السودان الغربي محملين بقناطير النحاس وآلات الحديد والعطر والتوابل وثياب الصوف وغيرها من البضائع . وبدون شك كان التجار اليهود دور بارز في هذا المجال أيضاً ، فقد كان لهم بالسوق الأغماتي مقام رئيسي . وعندما نقل المرابطون عاصمتهم من أغمات إلى مراكش فقد كان هذا يعني القضاء على النمو الاقتصادي لأغمات وذلك ما حصل فعلا .

وقد انطلق المرابطون من عمق التراب السينغالي ، وبالذات من جزيرة شمال نهر السينغال ، وقام عبد الله بن ياسين بنشاط واسع في مجال الدعوة الاسلامية ونشر المذهب المالكي . وكذلك تابع أبو بكر بن عمر هذه المهمة بين القبائل الوثنية ، وكان من أبرز القضاة الذين تعاونوا معه أبو بكر المرادي ذو الأصل القيرواني والذي نسب إليه إدخال علم الاعتقاد أو التوحيد إلى المغرب والسودان ، كما وضع كتاب السياسة الذي يحتمل أن أبا بكر بن عمر وكبار مساعديه قد أطلعوا عليه : وهكذا توغل الاسلام بعيداً في إفريقيا الغربية تارة عن طريق المرابطين ، وطوراً عن طريق بعض زعماء السودان المسلمين . وهكذا أسلمت جهات عديدة من حوض النيجر . وكان من أقوى المناطق النائية المجاورة للمسلمين منطقة الزافون . ويذكر ياقوت في معجم البلدان أن الزافون كانوا مسلمين ذوي منعة وقوة ، وأنهم كانوا أعرف بسياسة الملك من الملثمين. وأن يوسف بن تاشفين كان يعظم ملكها المعاصر له ، واستقبله يوسف بن تاشفين بقصره باحترام فائق . ويشير الحِمْيري إلى شعب راكنو بدل الزافون ، ويقول إنهم بربر .

ويعتبر الحسن الوزان ، سكان مالي أول شعوب السودان سبقا إلى الاسلام بإفريقيا الغربية في عهد أبي بكر بن عمر . غير أن مثل هذا الحسم يصعب قبوله لأنه يلغي دور التجار القدامى وإمارة تامدولت الادريسية التي امتد نفوذها إلى نهر النيجر . لكن مما لاشك كان فيه دور المرابطين تصحيحياً من جهة وتوسعاً

في الدعوة الاسلامية من جهة أخرى . أما التكرور الواقعة على نهر السينغال في القطر السينغالي الحالي فقد أسلمت على يد ملكها ورجابي الذي توفي سنة 432 هـ ، أي أن إسلام المنطقة تم قبل الانطلاقة المرابطية . وفي هذا الوقت كما في القرن التالي كانت تكرور ذات حضارة زاهرة . وتؤخر رواية الاستبصار قليلا ، إسلام التكرور ، بالنسبة لرواية البكري ، كما أن الاستبصار ينسب إسلام هذه الجهة إلى وزاجي بن ياسين ، وربما كان أخا لعبد الله بن ياسين ؟

وهناك مملكة قوية أخرى هي سنغاي التي نشأت على حوض النيجر بين إقليم تمبكتو وحدود نيجيريا الحديثة ، ومعالمها السكانية تتضح خصوصاً منذ القرن العاشر . وهي خليط من بربر لمطة الليبية ، والزنوج المحليين والسوركو القادمين من بحيرة تشاد على ما يحتمل ، وهم صيادو سمك . واستولى ضياء بن قس على غاو في أوائل القرن 11 م وجعل منها عاصمة لسنغاي التي كانت تجاور لمتونة أدرارا كما يذكر باذل دافدصن . وبسنغاي وجدت شواهد قبور منقوشة بالعربية مما يدل على التأثير القوي الذي كان للشمال في هذه المنطقة التي امتزج فيها الدم الصنهاجي والزنجي . ويتحدث البكري عن إسلام كاغو بينما كان من حولها وثنيين . وكانوا يتلقون عن طريق المغرب والمناطق الداخلية ، الملح والودع والنحاس والفربيون Euphorbe وهو نبات طبي ينمو في المناطق المدارية . ويعد القرن الحادي عشر بالنسبة لافريقيا الغربية ، والجزء الغربي من شمال إفريقيا فترة انبعاث الحكم الوطني ، أو بالأحرى فترة قيام أول حكم وطني قوي بالنسبة لغالبية المنطقة . إن الانطلاقة المرابطية كانت من غير شك ، ذات تأثير في سريان هذه الروح الوطنية حيث نجد نظام حكم آخر ينشأ في هذا القرن بكانم وبورنو ، وهو حكم إسلامي وطني امتد من تشاد إلى نيجيريا والكامرون (كاني ، مجلة البحوث التاريخية بليبيا ، يناير 1981) .

ويبدو أن المغرب أحكم صلاته التجارية بغانا خلال القرن الثاني عشر ، متخذا من المحور الممتد من تارودانت عبر الصحراء المغربية وموريتانيا الساحلية طريقاً دائب الحركة بعد أن تراجع المرابطون إلى مراكزهم القديمة بالصحراء . ويذكرنا هذا النشاط بسالفه في العهد الادريسي ، لكن الموحدين لم يغامروا بالزج بجنودهم فيما وراء مشارف نول ودرعة جنوباً ، فاكتفوا بتوطيد علاقاتهم الاقتصادية بغانا بعيدا عن المغامرات الحربية . وفي هذه الفترة بلغت كل من تارودانت وإيغلي شأواً بعيدا في مجال إنتاج قصب السكر وتصنيعه وتزويد الشمال الافريقي والأندلس بأجود أنواعه . وكانت إيغلي تزود أقطار السودان بالنحاس المسبوك أي على شكل سبائك

كما عند الادريسي الذي يجعل من أوليل آخر مراسي المغرب حيث مواطن جدالة .

ويظهر أن العلاقات لم تكن على ما يرام في بعض الفترات خلال القرن الثاني عشر ، فالمنصور رفض هدية من السودان هي عبارة عن فيل . ومع أن الهدية ربما كانت من تجار السودان بعيدا عن الرسميات فإن رفض المنصور لها لم يكن سوى رد فعل ضد بعض مواقف حكام السودان . وهكذا فالأمير أبو الربيع سليمان والي سجلماسة وأقاليمها وجه مذكرة إلى ملك غانا يستنكر العراقيل التي توضع أمام صغار التجار المتجهين من المغرب ، ويذكره بأن اختلاف الدين بين الجانبين لا يمنع من حسن التعايش ، وأن الجانب المغربي بإمكانه أن يعامل تجار السودان بالمغرب ، بالمثل . لكنه لا يستصوب هذا الاتجاه . وقد نقل المقري في نفح الطيب (ج 4 ، طبعة القاهرة 1949) هذا الجزء من المذكرة المشار إليها ، عن رحلة السرخسي المصري الذي عاصر الموحدين .

وشهد القرن الثالث عشر تطورات جديدة ، فمن جهة ، حرصت بعض مراكز القوى الشعبية بسوس على أن تحل محل الدولة في مراقبة طريق غانا عبر السوس الأقصى ، ومن جهة ثانية بدأ المغرب ينظر إلى العلاقات مع السودان نظرة فيها انفتاح دبلوماسي وفكري واسع أكثر فأكثر خلال القرن التالي . وهكذا نشأت إمارة بني يدر بسوس في أواخر العصر الموحدي ، واستقدمت مجموعات بني معقل الحسانيين الذين كانوا يستوطنون حوض ملوية ، وذلك بحجة وجود علاقة دم بين مؤسس هذه الامارة وبني معقل . وابتداء من هذه الفترة ، وبالرغم من حرص الحكومة المركزية على ضمان وحدة المغرب في مفهومه الواسع نجد الصحراء الجنوبية والغربية مع تبعيتها بالولاء والبيعة للسلطة المغربية ، تصبح وسيطاً رسمياً للمغرب لدى أقطار السودان ، وذلك من طريق كل من معقل ومسوفة . فمنهما الأدلاء ، والموفدون الرسميون المرافقون للوفود المركزية إلى أقطار السودان . وبدون معقل ومسوفة لم يكن باستطاعة المغرب الرسمي لفترة تمتد من القرن 13 إلى 19 أن يضبط علاقاته بإفريقيا الغربية بشكل مستمر وطبيعي ، وينبغي أن نعتبر هذه الخطة نجاحا بارعا للدبلوماسية المغربية التي تعد من أعرق الدبلوماسيات العالمية . وعن طريق معقل ومسوفة ، زعماءَ وأدلاءَ ووسطاءَ ، وأيضا كطلبة بمعاهد المغرب وكأساتذة ومسؤولين عسكريين وإداريين ، نجح المغاربة في تنشيط علاقاتهم بإفريقيا المغربية؛ بل أن القرويين استقبلت منذ القرن 13 م ، أعدادا كبيرة من طلاب بُرْنو وكانم ، كما ذهب زملاء لهم إلى كل من القاهرة وتونس . وبهذا الصدد يقول كاني في مجلة البحوث التاريخية السابق ذكرها ، إن الأزهر والقرويين ساهما مساهمة مهمة

في نقل المعرفة إلى كانم وبورنو إلى مناطق أخرى في السودان الأوسط . وإذا كان الأمر هكذا بالنسبة لافريقيا الوسطى فما الذي تكون عليه علاقات المغرب مع إفريقيا الغربية الأقرب نسبيا ؟

وخلال القرن 14 عاد طريق سجلماسة – السودان الغربي إلى أشد ما يكون نشاطاً وحركة ، فسجلماسة تتوفر على نسبة كبيرة من التجار والسكان الزناتيين الذي يجدون في الدولة المرينية الحماية والمنعة . وفي هذه الفترة يتحدث ابن بطوطة عن تبادل الملح في تغازى بالذهب ويقول : وبالملح يتصارف السودان . كما يتصارف بالذهب والفضة ... وقرية تغازي على ضغرها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر .

وهكذا فإن القرن الرابع عشر يمثل أوج نمو العلاقات بين إفريقيا الغربية والمغرب في العصر الوسيط ، بل ان هذه الحقيقة تشمل باقي الشمال الافريقي في تبادله مع أقطار السودان . وعندما تحكم المغرب في محور تلمسان مع السودان في عهد أبي الحسن المريني أحكم سلطان مالي منسا موسى صلاته بالعاهل المغربي وأظهر ارتياحه لبسط السلطة المغربية نفوذها على مملكة بني عبد الواد . وكتعبير عن حسن مشاعره ، بعث أبو الحسن بهدايا وتحف إلى معاصره المالي الذي كان ضمن وفده ترجمان صنهاجي ، كما أن العاهل المغربي بعث وفداً لهذا الغرض ، وأمر بعض بني معقل من سكان الصحراء باصطحاب الجميع إلى ملك مالي . وأثناء ذلك توفي منسا موسى فخلفه منسا سليمان وهلك هو أيضا بعد أن أعد هدايا سودانية إلى نظيره المغربي ، فألحق بها خلفه منسا جاطه زرافه ، واستقبلها حينئذ أبو سالم في عرض رسمي وشعبي كبير ، وقد فصل ابن خلدون تبادل الوفود والهدايا بين المغرب ومالي (ج 7) .

والواقع أن علاقات المغرب بمالي حظيت باهتمام الطرفين معاً ، وكان ابن بطوطة أبرز ممثل دبلوماسي في هذا العصر عن البلاط المغربي ، ووصف بدقة مشاهداته سواء عبر الطريق الصحراوي الذي قاده إلى مالي ، أو أوضاع السكان أو القصر السلطاني بمالي ، وسجل حسن التعايش بين أهل هذه البلاد ومن يخالطهم من البيض ومعظمهم من المغرب وباقي الشمال الافريقي . وينسب الوزان الأسرة الحاكمة بمالي منذ ظهور المرابطين حتى أواسط القرن 16 م . إلى سلالة أبي بكر بن عمر اللمتوني(2) (Léon, p. 466) . ووصف ابن بطوطة والحسن الوزان تمبوكتو

(2) المعروف أن الأسرة التي حكمت مالي خلال القرن 14 م هي أسرة كيتا

عاصمة مالي التي كانت سوقا تجاريا زاهرا يرتبط بصلات وثيقة ودائمة مع أسواق الشمال الافريقي وتتعامل بالذهب سبائك . وتأتيها المخطوطات والخيل من أقطار المغرب . ويتحدث الوزان عن ازدهار الحركة العلمية بهذا المركز النشيط ، كما أن جني المالية كان يتجه إليها محور سجلماسة وتصنع ثيابا قطنية جيدة وتتلقى من القوافل المغربية ، الملف والنحاس والأسلحة .

إن بعض الحضارات الافريقية تراجعت في أعقاب العصر الوسيط وبداية العصر الحديث ، والوزان يصف ما وصلت إليه بورنو من كآبة وانحطاط ديني وسياسي واجتماعي ، وذلك بسبب غزو بَرْدَاوَة ذوي الأصل التشادي ، لكنه يؤكد استمرار جلب الخيل من أقطار المغرب إلى المنطقة ، وقد كانت الخيل من أعز ما تحتاج إليه الدول الحاكمة بأقطار السودان .

ومن الذين تناولوا بالوصف أقطار إفريقيا الغربية ، القلقشندي في صبح الأعشى والذي رجع إلى جملة من المصادر بعضها في حكم المفقود ، ومنها كتاب لسعيد الدكالي الذي اعتبر مالي مجاورة لجنوبي مراكش ، وهو يقصد الأقاليم التابعة لها . ويلاحظ أن لمتونة كانت تابعة لمملكة مالي خلال القرن الرابع عشر ، لكن مع احتفاظها بحكم محلي ، وانتشر مذهب مالك على نطاق واسع بين المسلمين وحكامهم بإفريقيا الغربية والوسطى ، ولعلماء مصر والمغرب دور أكيد في هذا المجال ، كما أن ملوك مالي كان لهم نشاط بارز في نشر المذهب المالكي ، وقد جلب منسا موسى الفقهاء من الشمال إلى بلاده .

وهكذا يمكن إجمال مظاهر التبادل والعلاقات بين المغرب وإفريقيا الغربية والتي ظلت بعض مؤثراتها قائمة حتى يومنا هذا ، فيما يلي :

1 - في الميدان الاقتصادي ، يصدر المغرب الكتب والخيل والنحاس والأسلحة وأنواعا من المنسوجات والبضائع المغربية والتي يكون فيها وسيطا ، بينما يستورد الذهب بصفة سياسية ، بالاضافة إلى بعض المنسوجات القطنية والعاج وريش النعام

2 - في الميدان البشري يستقدم المغرب عدداً كبيراً من السودان للعمل في الجيش والخدمات الخاصة ، ويذهب إلى أقطار السودان تجار مغاربة قد يستقر بعضهم هناك نهائيا . وبعض قصور ملوك السودان تضم جواري من الشمال .

3 - في العادات والتقاليد ، أخذت إفريقيا الغربية بالزي المغربي كما نقل القلقشندي عن سعيد الدكالي ، وأخذ المغرب ببعض المؤثرات الموسيقية لاسيما

استعمال الطبل .

4 – في الميدان الفكري والعقائدي عمل الدعاة والفقهاء المغاربة على نشر الاسلام والمذهب المالكي ، وراجت المؤلفات المغربية والاسلامية عن طريقهم ، وانتشر الخط المغربي الذي عم كل افريقيا الغربية وإفريقيا الشمالية ، وقصد المغرب عدد كبير من طلبة السودان . كما أن ثمرة هذا العمل المغربي أدت إلى ظهور علماء كبار من السودان ، بعد هذه الفترة خصوصاً ، فقصدوا المغرب أو قصدهم طلابه .

ومعظم هذه العلاقات بل وأهمها انبنى على التعايش السلمي وروح الأخوة الافريقية والاسلامية ، وما حدث من صدامات بين صنهاجة وجيرانهم بأقطار السودان ، لا يختلف في شيء عما حدث بين القبائل السودانية نفسها .

وأهم ملاحظة يمكن أن يُختم بها هذا العرض هي أن غالبية المراكز السودانية النشيطة في مجال العلاقات مع المغرب تتمحور حول المواقع المائية ، خصوصاً نهر السنغال وحوض النيجير . ومعنى هذا أن الصلات بين المغرب وهذه المواقع كانت تمثل علاقات شعب متحضر بنظرائه . والحضارة لم تختص بالمناطق المذكورة وحدها في إفريقيا الغربية ، لكن الحاجة والظروف الجغرافية ووسائل الاتصال كان لها دور في أولويات المغرب وجيرانه .

رد الاعتبار لـِ «تحفة النظار» أو رحلة ابن بطوطة المغربي للسودان الغربي

عثمان بناني
كلية الآداب – الرباط

قام ابن بطوطة برحلته إلى السودان الغربي في الفترة من 18 فبراير 1352 م إلى أواخر سنة 1353 م . ورغم مرور أكثر من ستة قرون على هذه الرحلة ، فإن ما كتبه ابن بطوطة عن المناطق التي زارها جنوب الصحراء الكبرى ما يزال يعتبر من المصادر الأساسية لكتابة فترة من أهم فترات تاريخ غرب إفريقيا الاسلامية في العصر الوسيط بصفة عامة وتاريخ مملكة مالي بصفة خاصة .

وتجدر الاشارة إلى أن عبارة «السودان الغربي» لم ترد أبداً في كتابات ابن بطوطة ، بل وحتى في كتابات المؤرخين والجغرافيين والرحالة المسلمين الذين سبقوه بالاهتمام بهذه المنطقة ، لأن هذه العبارة لم تظهر إلا في القرن التاسع عشر عندما

تم اكتشاف منابع نهري النيل والنيجر ، وعرف حينئذ أنهما نهران منفصلان عن بعضهما كل الانفصال ، وليسا نهراً واحداً كما كان يعتقد من قبل(1) . وقد أطلق إسم «السودان الغربي» على منطقة نهري السنغال والنيجر ، بينما أطلق إسم «سودان وادي النيل» على المنطقة الواقعة جنوب مصر . أما الجغرافيون والمؤرخون والرحالة المسلمون ومنهم ابن بطوطة ، فقد كانت «بلاد السودان» تعني بالنسبة لهم منطقة أوسع بكثير من المنطقة المسماة حاليا بالسودان الغربي ، فهي المنطقة التي يسكنها السود ، وتمتد جنوب الصحراء الكبرى من المحيط الأطلسي إلى بلاد النوبة على نهر النيل(2) .

عاش ابن بطوطة في القرن الرابع عشر الميلادي ، هذا القرن الذي تميز بظهور اهتمام عام عارم في المشرق والمغرب بما يجري في منطقة السودان الغربي باعتبارها جزءاً لايتجزأ من العالم الاسلامي وباعتبارها مركزاً هاما من مراكز التجارة العالمية . وربما يكون من الملائم الاشارة إلى أنه في بداية هذا القرن الرابع عشر الميلادي ، كانت هناك في القارة الافريقية ثلاث قوى رئيسية هي دولة المماليك في مصر ومركزها القاهرة ، ودولة المرينيين في المغرب ومركزها فاس ، ودولة مالي في السودان الغربي ومركزها نياني ، وكانت هذه القوى الاسلامية الثلاثة متصلة فيما بينها اتصالا سياسيا وتجاريا وثقافيا ، وكانت كل منها قوة مستقلة كل الاستقلال ومركز دائرة تجارية واسعة النطاق(3) .

فما هي إذن المعرفة التي كانت سائدة في العالم الاسلامي مغربا ومشرقا عن هذه القوة الاسلامية الافريقية جنوب الصحراء الكبرى ؟

في البدء تجب الاشارة إلى أنه لم تكن هناك معرفة واضحة ولا معلومات أكيدة عن السودان الغربي ولا عن أحواله وما يجري فيه من أحداث قبل دخول الاسلام

(1) سنستعمل في هذه الدراسة عبارة (السودان الغربي) لأنها أكثر تحديداً من كلمة «السودان» وعبارة «بلاد السودان» ، ولأنها هي المنطقة التي جرت فيها الأحداث التي اهتم بها ابن بطوطة وأشار إليها في رحلته .

(2) CUOQ, Joseph : Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'Ouest, des origines à la fin du XVIᵉ siècle. (Paris, Geuthner, 1984), P.IX.

(3) هذا هو الذي دفع ابن فضل الله العمري إلى الاهتمام في كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» بذكر أخبار مملكة مالي وأفرد لها الباب العاشر بأكمله ، ويدل على ذلك ما ذكره في فاتحة كتابه أنه لم يقصد « ... من المعمورة سوى الممالك العظيمة ...»
(ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، 1924 . ص 4)

إلى شمال إفريقيا ، فالفينيقيون واليونان ثم الرومان كانوا يعتبرون المنطقة الواقعة خلف الصحراء الكبرى «أرضا مجهولة مرعبة» ، ولذلك لم يترك لنا مؤرخوهم شيئا موثوقا به عن هذا الجزء من إفريقيا .

نعم ، لقد تحدث الكتاب اليونان والرومان عن الزنوج الأفارقة القادمين من وراء الصحراء الكبرى منذ القرن الثاني الميلادي ، ولكن كتابات هؤلاء الكتاب كانت تعتمد أساسا على ملاحظاتهم ودراساتهم لحياة وسلوك وعادات وتقاليد الزنوج العبيد الذين نقلوا من مواطنهم الأصلية إلى شمال إفريقيا ثم إلى أوروبا(4) .

ولكن بمجرد دخول الاسلام إلى شمال إفريقيا في أواسط القرن السابع الميلادي ، بدأت أخبار السودان الغربي تصل بشكل مباشر عن طريق التجار ثم الحجاج إلى الشمال وإلى الشرق الاسلامي . ونظرا لاهتمام العرب الشديد بالدراسات الجغرافية – وهو الاهتمام الذي حتمته فتوحاتهم العسكرية واتساع إمبراطوريتهم وتجارتهم الواسعة ثم الحج إلى الديار المقدسة – فقد استطاعوا التعرف على العديد من المناطق البعيدة والمجهولة مثل المناطق الافريقية جنوب الصحراء ، وحددوا مواقعها على خرائطهم ، وربطوها بمراكزهم الحضارية والتجارية في إمبراطوريتهم . وتكفي الاشارة إلى أن محمد بن موسى الخوارزمي المتوفي سنة 844 م هو الذي أضاف مملكة غانة إلى الخريطة التي وضعها بطليموس في منتصف القرن الثاني الميلادي والتي كانت حدودها الجنوبية تقف فقط عند «جزر كناريا» التي أطلق عليها إسم «جزر السعادة» . ولذلك فإن الفضل الكبير في استكشاف منطقة السودان الغربي وفي كشف أحوالها وأخبارها ، وكذلك الحديث عن الصحراء التي تفصل بين شمال إفريقيا وهذه المنطقة ، والحديث عن المراكز التجارية بهذه الصحراء ، وإبراز كل ذلك في كتابات ولأول مرة في التاريخ ، يرجع إلى مجموعة من كبار الجغرافيين و المؤرخين والرحالة المسلمين الذين سبقوا ابن بطوطة بالكتابة عن الصحراء والسودان الغربي ، وشكلوا بما كتبوه عن هذه المناطق معرفة ناس ما قبل منتصف القرن الرابع عشر الميلادي(5) وبفضل هؤلاء دخل تاريخ السودان الغربي ضمن تاريخ العالم ، وأصبح في إمكان القارىء العربي والاسلامي أن يتعرف

(4) KAKE, Baba Ibrahima : Glossaire critique des expressions géographiques concernant le pays des noirs. (D'après les sources de langue arabe du milieu du VIII[e] à la fin du XIII[e] siècle. (Paris, Présence africaine, 1965). P.10

(5) أفضل مرجع يمكن الاطلاع عليه للتوسع في هذا الموضوع هو كتاب :

CUOQ, Joseph : Recueil des sources arabes concernant l'Afrique occidentale du VIII[e] au XIII[e] siècle. (Paris, Editions du Centre national de la recherche scientifique, 1985). 515 p.

على هذه المنطقة ، في الوقت الذي كان فيه الأوروبيون وغيرهم من غير العرب والمسلمين لا معرفة لهم بما يجري خلف الصحراء الكبرى .

ولكن ، ومع ذلك ، ورغم الفوائد الجمة التي يجنيها الباحث في الدراسات الافريقية الخاصة بالسودان الغربي عند الاطلاع ودراسة وفحص وتمحيص ومقارنة ما كتبه هؤلاء الجغرافيون والمؤرخون والرحالة المسلمون ، فإنه يمكننا القول باختصار أن المعرفة التي كانت منتشرة في المغرب وحتى في المشرق الاسلامي عن السودان الغربي ، وأحواله وشعوبه في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي لم تكن رغم أهميتها القصوى تتلاءم مع الشهرة التي أصبحت تتمتع بها هذه المنطقة ، وهذا هو الذي جعل ابن بطوطة يسعى لزيارتها والاطلاع على أحوالها ، وهو الذي جعل مؤرخا فذا مثل ابن خلدون يكتب عنها ويشير إليها إشارات عديدة في مقدمته وفي ثنايا تاريخه ثم يفرد لدولة مالي عدة صفحات تعتبر من أهم ما كتب عن تاريخ هذه المملكة الافريقية(6) .

وقد يكون من المفيد أن نشير إلى أن السودان الغربي كان قد بدأ يتغير منذ منتصف القرن الثالث عشر الميلادي ، فقد بدأ يتوحد شيئا فشيئا تحت زعامة مملكة مالي ، ولم تصل نهاية هذا القرن حتى كانت هذه المملكة قد بلغت درجة كبيرة من الظهور والانتشار ، وبدأ ملوكها يعتبرون دولتهم جزءاً من دار الاسلام ، ولذلك بدأوا يذهبون إلى الشرق الاسلامي ويزورون القاهرة ويحجون إلى الديار المقدسة ، وبدأوا يرتبطون بعلاقات المودة والاخاء مع ملوك المغرب ومصر ، ولكن في نفس الوقت بدأت العلاقات مع مصر تقوى وتصبح أقوى من العلاقات بين مالي والمغرب ، وبدأت دولة مالي تظهر على الساحة الاسلامية ، ولم يصل منتصف القرن الرابع عشر الميلادي حتى كانت لهذه الدولة شهرة واسعة النطاق لما تتمتع به من ثروة وجاه(7) . وفي هذه الفترة بالذات زارها الرحالة المغربي أبو عبدالله محمد بن عبدالله الطنجي المعروف بابن بطوطة .

بدأ ابن بطوطة رحلته إلى «جوف افريقيا» كما قال ، في 18 فبراير 1352 وعمره 48 سنة ، أي بعد تجربة طويلة وخبرة هائلة اكتسبها أثناء رحلة حافلة استمرت سنين عديدة تجول خلالها في معظم بلدان العالم المعروف في وقته . وقد استغرقت

(6) ابن خلدون : كتاب العبر . (بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، 1967) . المجلد السادس ص 414 وما بعدها .

(7) يقول محمود كعت في تاريخ الفتاش (ترجمة هوداس والمنشور سنة 1913) في الصفحة 67 : « ... كانت مملكة مالي غنية جدا ، ولم يكن هناك أجمل منها في العالم بأسره سوى الشام» .

رحلته إلى السودان الغربي عشرين شهرا عاد بعدها إلى مدينة فاس في أواخر سنة 1353 م . وبمجرد وصوله أعطى السلطان أبو عنان أوامره لكاتبه محمد بن جزي لكتابة ما يمليه عليه ابن بطوطة من وصف لرحلاته ، وبذلك ظهر إلى الوجود كتاب «**تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**» . وقد أملى ابن بطوطة عن ظهر قلبه ما يذكره على كاتب السلطان ، وهذا يفسر لنا ما نلاحظه في سياق رحلته من بعض المبالغات والهفوات الجغرافية ، وهذا ينطبق بصفة خاصة على رحلته الأولى إلى المشرق . وبسبب هذه الهفوات والمبالغات تعرض ابن بطوطة لكثير من النقد ، وفي بعض الأحيان لكثير من التجريح حتى بالنسبة لما ذكره من معلومات عن السودان الغربي ، على الرغم من أن ما تلاه على ابن جزي كان ما يزال طريا وحاضراً في ذهنه نظراً لقرب حدوثه ، وقد شك الكثير في بعض الأخبار والمعلومات التي أعطاها عن بعض البلدان ، بل اتهم بأنه لم يزر إطلاقا بعض المناطق التي ذكر أخبارها في رحلته(8) . وقد هاجمه أيضا معاصروه ، وأشير هنا إلى أن ابن خلدون وقد سمعه والتقى به شخصيا في مدينة فاس ، استنكر ما يحكيه ابن بطوطة ، بل وتحادث مع فارس بن وردار وزير السلطان أبي عنان المريني في شأن إنكار أخباره وفضحه ، إلا أن الوزير نصحه ألا يفعل ذلك لأنه لا يستطيع استنكار شيء لم يره . وكان ذلك درسا بليغا لابن خلدون الذي لم يكن عمره يزيد حينئذ على 21 سنة ، وقد ذكره في مقدمته في الفصل الذي يبحث «في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها» . وربما يكون هذا هو الذي جعل ابن خلدون يكتب في هذا الفصل ما يلي : «ولا تنكرن ما ليس بمعهود عندك ولا في عصرك شيء من أمثاله ... فكثير من الخواص إذا سمعوا أمثال هذه الأخبار بادر بالانكار ، وليس ذلك من الصواب ....»(9) .

وبالنسبة لنا ، فإن ما جاء به ابن بطوطة من معلومات وأخبار عن منطقة السودان الغربي يعتبر من الدرجة الأولى من الأهمية ، وذلك لأن هذا الرجل لم

(8) هاجم أبو القاسم الزياني ابن بطوطة هجوما عنيفا في كتابه «الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا» ، وذكر أن أحد طلبة السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1757 م – 1789 م) أخبره أنه «كان يسرد على السلطان رحلة ابن بطوطة وساق كلام ابن تيمية في الاستواء والنزول ... فقال له السلطان سيدي محمد : «إطو ذلك الكتاب وبعه في السوق وكل ثمنه لحما ، هذا رجل كذاب من أهل التجسيم كمن نقل عنه ، فوالله لو حضر بين يدي لأضربن عنقه ، فقد تحقق عنه ما وسمه به أهل الأندلس من الكذب ، وسيما إذ هو من أهل البدع» .
(الترجمانة الكبرى . الرباط ، وزارة الأنباء ، 1967 . ص ص 581 ، 582) .

(9) ابن خلدون : المقدمة . (بيروت ، دار الكتاب اللبناني ، 1967) . ص 322 وما بعدها .

يكن جغرافيا نقالة ، أو من أصحاب الموسوعات أو من الأدباء ، بل كان شخصا عاديا للغاية لا يتمتع بأية مواهب خاصة ، ولا تنعكس في رواياته أفكار عميقة أو ملاحظات دقيقة ، إلا أنه شخص شاهد الكثير وعرف كيف يصور ما شاهده بدقة وبساطة ، وقد جعلت منه الأقدار جغرافيا على الرغم منه إن صح هذا التعبير ، وصنعت منه لونا من الرحالة نادراً عند المسلمين ، ذلك هو الرحالة الذي يستهدف الرحلة لذاتها ويضرب في مجاهل الأرض استجابة لعاطفة جياشة لا تقاوم ، ورغبة جارفة في التعرف على الأقطار والشعوب . وهو على نقيض الغالبية العظمى من الجغرافيين المسلمين – لم يجمع مادته من صفحات الكتب ، بل جمعها عن طريق التجربة الشخصية وعن طريق محادثاته مع شخصيات تعرف عليها عرضا خلال رحلته . وبصفة عامة فإنه لم يعتمد كثيراً على الرواية الشفوية كما سيفعل ابن خلدون مثلا فيما بعد . وقد شغل الاهتمام بالأماكن الجغرافية مكانة ثانوية عند ابن بطوطة بالنسبة لاهتمامه بالناس ، وهو بالطبع لم يفكر في أن يجري أي نوع من البحث والتحقيق في مجال الجغرافيا ، ولعله – ونتيجة لهذا بالذات – أصبح كتابه «**تحفة النظار**» تحفة حقيقية ، إذ أنه صورة معبرة وصادقة للمجتمع الاسلامي في السودان الغربي في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي؛ فهو خزانة تمتليء بمادة غنية لا في مجال الجغرافيا التاريخية أو تاريخ عصره فحسب ، بل عن جميع حضارة ذلك العهد ، فتراه يعرض لجميع الظواهر الاجتماعية بالسرد حتى تلك التي يهملها المؤرخون عادة ، فتمر أمام أنظارنا مراسيم البلاط في مملكة مالي وأزياء الناس المختلفة وعاداتهم وتقاليدهم وحرفهم وأصناف الأطعمة والمواد الغذائية ...الخ .

والحقيقة أن ابن بطوطة تحدث حديثا صادقا أمينا عن كل شيء شاهده في رحلته السودانية ، وهو في نهاية الأمر لم يكن يستطيع غير ذلك ، لأن الحديث عن الرحلة وتسجيل هذا الحديث بيد كاتب السلطان ، كان بشكل أو بآخر تقريراً مقدما للسلطان أبي عنان ، وهذا بالذات هو الذي جعل الباحثين في مختلف مجالات البحوث والدراسات الافريقية يهتمون بما قاله اهتماما خاصا ويدرسونه دراسة دقيقة أدت في نهاية الأمر إلى رد الاعتبار إليه وإلى إعلان الثقة في رواياته ، وبصفة خاصة تلك التي ترتبط برحلته في السودان الغربي . وقد بلغت ثقة بعض الباحثين في ابن بطوطة إلى الحد الذي أصبحوا يشكون في صحة بعض المعلومات التي جاءت في مصادر أخرى ولم يذكرها الرحالة في رحلته ، وهكذا أصبح «المسكوت عنه» في رحلة ابن بطوطة يثير الشك ويحتاج إلى إعادة النظر(10) .

(10) KI - ZERBO, J. : «Introduction générale». Histoire générale de l'Afrique. Tome I. (Paris, ◄

ولابد من الاشارة هنا إلى أن رحلة ابن بطوطة لقيت ما تستحقه من عناية واهتمام عند عبد الرحمن السعدي صاحب كتاب «تاريخ السودان» ، فقد ذكر هذا المؤرخ الافريقي الفذ إسم ابن بطوطة في كتابه ، ولا شك أنه اطلع على رحلته واعتمد على بعض ما جاء فيها من معلومات ، وهذا وحده رد اعتبار لا مثيل له من مثقف سوداني لرحالة مغربي زار وطنه وتحدث عنه بأمانة وصدق .

ويمكن القول في نهاية الأمر ، إن ابن بطوطة ترك لنا منجما من المعلومات القيمة التي استغلت وتُستغل حاليا لتوضيح بعض جوانب التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والسياسي والثقافي والفني لمملكة مالي ، ويكفي أن نذكر أن هذه المعلومات قد استعملت في تحديد موقع «نياني» عاصمة مملكة مالي(11) ، ومن استغلال الملح والنحاس في السودان الغربي ، ومراكز إنتاج الذهب ، ودور الفن الشعبي في الاحتفاظ بتاريخ الشعب في ذاكرة الناس ، وانتشار اللغة العربية ، ومدى انتشار الاسلام والتقاليد الاسلامية ، ومدى اختلاط الاسلام كعقيدة بالتقاليد الوطنية القديمة ، وعلاقات مملكة مالي بالمشرق من ناحية وبالمغرب من ناحية أخرى ، وتحديد الطريق الذي كان يربط منطقة السودان الغربي بمنطقة شمال افريقيا .

ومما تجدر الاشارة إليه أن ابن بطوطة قام برحلته في فترة كان السودان الغربي ما يزال ينعم فيها بحالة من الاستقرار والازدهار ، ولكن هذه الحالة سرعان ما بدأت تتغير ، وبدأ الانهيار يصيب ليس السودان الغربي فحسب ، بل أيضا المغرب ومصر على حد سواء ، وبدأت العلاقات تتأثر والتجارة تتعثر ، و لم يعد ملوك مالي يزورون القاهرة ويذهبون للديار المقدسة كما كان يفعل ملوك الفترة من عام 1260 م إلى عام 1351 ، حيث كان الحج إلى بيت الله الحرام قد أصبح من الفضائل العظمى التي تذكر للملوك الكبار(12) .

أما عن المعرفة التي أضافها ابن بطوطة إلى ما كان يعرفه الناس عن السودان الغربي ، فإن عامة المؤرخين والجغرافيين المسلمين الذين عاصروه أو جاؤوا

◀ UNESCO, 1980). PP 25,26.

(11) حول مشكلة تحديد موقع نياني عاصمة مملكة مالي أنظر :

MAUNY, Raymond : Tableau géographique de l'Ouest africain au Moyen âge. (Dakar, IFNA, 1961). PP. 122, 123, 124

(12) آخر ملوك مالي الذي زار مصر وذهب للديار المقدسة كان هو الملك منساموسى ، وتم ذلك في عام 1351 م . وفي عهد هذا الملك زار ابن بطوطة مملكة مالي . وبعد هذه السنة توقف ذهاب ملوك السودان الغربي للديار المقدسة لمدة 145 سنة إلى أن قام ملك السنغاي الأسكيا محمد بالحج إلى مكة المكرمة في سنتي 1496 / 1497 م .

بعده – وقد أشرت إلى موقف ابن خلدون منه – نظروا إليه نظرة استخفاف شديد لا يستحقها ، وقد اعتبرت رحلته وربما حتى الآن عند الأغلبية الساحقة من المثقفين والمتعلمين المسلمين رحلة مغامرات وتسلية فقط لا غير ، بينما على العكس من ذلك ، فقد استفاد منها الأوروبيون استفادة كبرى ، إذ ترجم الألمان في سنة 1808 م الجزء الخاص بمالي من موجز للرحلة كان قد وضعه شخص اسمه البيلوني في القرن السابع عشر الميلادي ، وقد سمى الألمان هذا الجزء بـ «الرحلة الافريقية» ، ولا شك أن الرحالة هنريش بارث (BARTH) اطلع عليه قبل أن يبدأ رحلته المشهورة إلى السودان الغربي في سنة 1850 م ، وإنه استفاد من وصف ابن بطوطة الدقيق للطريق الصحراوي الرابط بين شمال افريقيا وغربها .

ولكن يبدو أن الفرنسيين هم الذين استثمروا الرحلة واستفادوا من معلوماتها أكثر من غيرهم ، فقد عثروا على مخطوطة كاملة لتحفة النظار في إحدى مكتبات الجزائر عندما احتلوها سنة 1830 م ، وقام بأول ترجمة فرنسية لبعض أجزائها البارون دوسلان (DE SLANE) في سنة 1843 م[13] ، ثم استطاع المستشرقون الفرنسيون من عام 1858 م إخراج أول طبعة كاملة للرحلة مصحوبة بترجمة فرنسية من أربعة أجزاء ، ولا شك أنها أعطتهم حينئذ صورة واضحة عن المناطق الصحراوية جنوب المغرب وعن منطقتي منحنى نهر النيجر وتمبكتو التي احتلوها في نهاية القرن التاسع عشر .

(13) De SLANE : Journal Asiatique. Mars 1843. pp. 181 - 246.

المسالك الصحراوية توات حلقة اتصال بين المغرب وافريقيا الغربية

محمد أعفيف
كلية الآداب – الرباط

تعتبر المسالك في الصحراء عنصرا مهما في البنية التحتية لاقتصاد الواحات والمجال الصحراوي عموما . ذلك أن المسالك تلعب دورا رئيسيا في تكسير حاجز الصحراء بربطها الاتصال بين الواحات المتفرقة من جهة ، و بين مناطق العمران المحيطة بالصحراء من جهة أخرى . ولربما تعدى ذلك إلى أن تصبح المسالك الصحراوية جزءا من شبكة طرق عالمية ، كما هو الحال بالنسبة للمسالك العابرة للصحراء الكبرى في شمال إفريقيا التي احتلت مكانة متميزة في التجارة العالمية بين أوربا والشرق الأوسط وشمال افريقيا من جهة ، وافريقيا الواقعة جنوب الصحراء من جهة أخرى ، خلال العهود التاريخية السالفة .

ما نرومه في هذا البحث هو التركيز على جزء من المسالك العابرة للصحراء الكبرى ، ونخص بها المسالك المارة بواحات توات والتي حافظت على جزء من نشاطها التقليدي إلى نهاية القرن التاسع عشر ، أي إلى الوقت الذي أتم فيه

الاستعمار الفرنسي احتلال افريقيا الغربية والأطراف الشمالية للصحراء جنوب دول المغرب . واختيارنا للمسالك المارة بتوات جاء نتيجة اهتمامنا بدراسة المنطقة وأيضا من أهمية هذه الواحات ضمن شبكة الطرق التي تربط شمال الصحراء بجنوبها بما لها من موقع متميز وما توافر لها من إمكانات طبيعية وبشرية جعلت منها معبرا رئيسيا ونهاية في حد ذاتها تتفرع منها مسالك نحو الشرق والشمال والجنوب .

تتكون واحات توات في الواقع من ثلاث مجموعات من الواحات : ڭورارة و تيدكلت وتوات . وتمتد هذه الواحات على هيئة هلال يتحلق حول هضبة تادمايت التي تقع إلى الشرق منه . ترسم واحات ڭورارة الذراع الشمالي للهلال بموقعها المتوسط بين هضبة تادمايت في الجنوب والعرق الغربي الكبير في الشمال ، بينما ترسم واحات تيدكلت الذراع الجنوبي مباشرة جنوب هضبة تادمايت ، أما واحات توات فتشكل مقعر الهلال غرب الهضبة و هي في الواقع امتداد طبيعي لوادي الساورة . ولإعطاء صورة أكثر وضوحا لهذا الموقع فإن أقصى الواحات الجنوبية تقع على خط العرض 26 شمال خط الاستواء وأقصاها في الشمال على خط العرض 29 .

أعطى هذا الموقع مكانا متفردا للواحات في الصحراء إذ بموقعها هذا تكون أقصى الواحات المتوغلة في الصحراء في جنوب شمال افريقيا . الشيء الذي جعلها مهيأة طبيعيا لكي تلعب دورا رئيسيا في طرق القوافل التجارية العابرة للصحراء حتى أن إسم هذه الواحات يكاد يقترن ذكره بصفة عامة في المصادر التاريخية والجغرافية بالمسالك ولا تعرف فيها إلا من هذا الباب . كما أن بعدها عن مراكز السلطة في شمال إفريقيا وجنوبها ساعد على إيجاد نظام اجتماعي وسياسي بها يتمتع بمرونة في ربط علاقات متعددة مع قبائل البدو التي تصل في ترحالها إليها وبالزوايا ذات النفوذ المحلي والجهوي ومع السلط المركزية في شمال إفريقيا التي لم يمنع الارتباط بها أو الخضوع لها من الاستقلال النسبي للواحات نظرا لبعدها ووضعها الخاص[1] . هذا بالاضافة إلى الامكانات الزراعية للواحات ، إذ أن توفر نظام الري بها على أساس استغلال المياه الجوفية بواسطة نظام الخطارات (أو الفجارات كما تعرف محليا)

(1) اعتمدنا في معطيات هذا العرض على البحث الذي كنا قد تقدمنا به لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ بكلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط ، وهو تحت عنوان «مساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي والسياسي لواحات الجنوب الغربي ، توات في القرن التاسع عشر» . وذلك في سنة 1982 . ولذا نطلب من القارىء الرجوع إلى البحث المذكور في حالة طلب معرفة المصادر الأصلية لما يرد في هذا العرض .

مكن سكان الواحات من إنتاج زراعي يفوق الاستهلاك المحلي ويدخل ضمن المبادلات التجارية للواحات مع البدو ومدن الشمال . وأخيرا لم تكن الواحات معبرا فقط للقوافل التجارية بل كانت بها أسواق تتبادل فيها سلع الشمال والجنوب ومنتجات الواحات ويعمل بها ممثلون عن تجار المدن الشمالية بالاضافة إلى التجار المحليين . كل هذه العوامل جعلت من الواحات معبرا رئيسيا في الصحراء أو محطة مهمة في طريق القوافل ومكانا للتبضع يشكل في حد ذاته مقصدا أو نهاية لبعض القوافل .

احتلت الواحات التواتية مكانتها في طريق القوافل منذ القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر الميلاديين وذلك لتضافر عدد من العوامل السياسية والاقتصادية عملت على ازدهار المسالك المتوسطة في الصحراء على حساب المسالك التي تقع في أقصى الغرب . من هذه العوامل التشتت السياسي الذي عرفته دول المغرب بعد ضعف الدولة الموحدية وما نتج عنه من تعدد في مراكز السلطة والتجارة في كل من تونس و بجاية وتلمسان وفاس والتي كانت تطالب كل منها بنصيب من تجارة القوافل . وهذا ما جعل توات في موقع متوسط بالنسبة للعواصم التي ذكرناها . هذا بالاضافة إلى تخلي القوافل القادمة من الشمال عن المرور بملاحة تغازي (التي تقع إلى الغرب من المسلك الذي يربط توات بجنوب الصحراء) لخضوعها لاحدى ممالك الجنوب . ويضيف ابن خلدون سببا رئيسيا في ازدهار توات والمسالك المارة بها وهو بعدها «عن هضيمة الحكام وذل المغارم»(2) . الشيء الذي جعل منها مطلبا عزيزا للفارين من تعسف الحكام وشبه سوق حرة بالمعنى المتعارف عليه اليوم . وقد عرفت الوحات التواتية ازدهارها الاقتصادي والتجاري فيما تلى ذلك من القرون خاصة في القرن السادس عشر والقرن السابع عشر ، ويكفي أن نعطي كدليل في هذا الباب وصف العياشي لواحات توات الذي مر بها وهو في طريقه للحجاز في أواسط القرن السابع عشر (1663) «وسبب إقامتنا في هذه البلاد هذه المدة أن الذهب فيها أرخص ، وكذلك سعر القوت من الزرع والتمر . وهذه البلاد على مجمع القوافل الآتية من بلاد تبكت ومن بلاد أكديز من أطراف السودان ، و يوجد فيها البضائع والسلع التي تجلب شيء كثير من السلع التي تجلب من الغرب ، مما هو خارج السودان نافقه في هذه البلاد كالخيل و ملابس الملف والحرير . فإذا قدم إليها الركب كان فيها سوق حافل»(3) لم تحافظ توات

(2) ابن خلدون ، كتاب العبر المجلد الخامس ص 119 . منشورات دار الكتاب اللبناني بيروت 1956 .
(3) ابوسالم العياشي ، الرحلة العياشية أو ماء الموائد ، الجزء الأول ، ص 11 ، الرباط ، 1977 .

على هذا الازدهار الذي نجده في أكثر من مصدر آخر ، إذ عرفت الواحات في نهاية القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر تقلصا في أنشطتها الزراعية والتجارية ، ويرجع سبب ذلك إلى تضافر جملة من العوامل بعضها عوامل طبيعية محض كنقصان صبيب مياه الخطارات وبعضها اقتصادي يفوق مستوى الواحات كالانتكاس الذي عرفته تجارة السودان بصفة عامة .

ومع هذا حافظت الواحات على نصيب من تجارة القوافل إلى نهاية القرن التاسع عشر وبقيت المسالك المارة بها نشيطة إلى ذلك التاريخ . والأكثر من ذلك اعتبر الفرنسيون تلك المسالك ذات أهمية استراتيجية في احتلال الصحراء واقتطاع أجزاء من الجنوب المغربي وتحقيق حلم إقامة إمبراطورية استعمارية تشمل كل غرب افريقيا شمالها وجنوبها وصحراءها يربطها خط حديدي يسير من الجنوب الوهراني إلى خليج غينيا ، على غرار الحلم البريطاني في إقامة خط حديدي يربط جنوب إفريقيا بمصر . وفيما يلي سنحاول استعراض بعض العوامل المؤثرة في اختيار المسالك الصحراوية وازدهارها مع التركيز على نموذج المسالك المارة بتوات وننهي هذا العرض بوصف لهذه المسالك أو ما بقي منها مستعملا إلى نهاية القرن التاسع عشر .

تعتبر التضاريس الطبيعية أو ما يمثل منها عوائق طبيعية أمام المواصلات من العوامل المؤثرة في تخطيط المسالك التي تحاول إما تجنب العائق الطبيعي أو تخطيه في أقل مراحله صعوبة . ومن الحواجز الطبيعية في الصحراء الحمادة والعرق . إذ أن العروق والسيوف الرملية وغيرها من التضاريس الرملية المتحركة بفعل الزوابع والرياح تمثل خطرا كبيرا على القوافل . لذا تخطط المسالك بعيدا عن العروق الرملية ما أمكن ذلك . هذا ومن الخطأ الاعتقاد أن كل التضاريس الصحراوية تضاريس رملية حيث لا تشكل التضاريس الرملية في الصحراء إلاّ نسبة معينة تختلف من صحراء لأخرى ولربما وجدت صحاري لا أثر فيها للتضاريس الرملية . وفي المقابل يغلب على التضاريس الصحراوية التنوع حيث يبدو واضحا مخلفات المناخ الرطب الذي عرفته المنطقة كالأودية وما تخلفه عادة التعرية المائية . وفي المجال الذي يهمنا توجد ثلاثة عروق رئيسية وهي العرق الغربي الكبير والعرق الشرقي الكبير وعرق الشاش (أنظر الخريطة) . وكما يلحظ القارىء في الخريطة المرفقة أن المسالك الرئيسية بين شمال الصحراء وجنوبها تتجنب في أغلبها قطع العروق . ومع هذا لا تشكل العروق حاجزا منيعا إذ عادة ما تتخلل هذه العروق أودية يمكن استعمالها في المواصلات كما هو الشأن في واد الناموس المار بالعرق الغربي الكبير والذي سنعود إليه .

العائق الطبيعي الثاني وهو الحمادة . والحمادة كما هو معلوم أرض يغلب عليها

الاستواء تغطيها طبقة من الحصى . ورغم استواء الحمادة فهي أرض صلبة يصعب على الجمال السير فيها بسهولة ومصادرها المائية محدودة حيث الآبار قليلة وبعيدة الغور . وقد وصف العياشي حمادة تُكير التي توجد في مجال مسالك توات بالوصف التالي الذي يغني عن تفصيل ما تمثله الحمادات من صعوبات : «وسرنا يومنا إلى الليل في أرض حرشة وعرة يغني عن وصفها ما لها من الشهرة ، لا حطب فيها ولا كلأ ولا ماء إلا ما في القرب»(4) .

العامل الثالث في اختيار المسالك وهو توفر المصادر المائية والكلأ للدواب والمؤن للرحالة خلال مراحل الرحلة . ويجدر هنا أن نذكر ببعض المعطيات الجغرافية لتوات ذلك أن هذه الواحات تمتد على هيئة شريط تتوزع فيه القصور والبقع المزروعة على مسافات تقل أو تقصر حسب كثافة الواحات وإمكانات الري . وعلى العموم يمكن قطع المسافة بين قصر وآخر في أقل من يوم وفي أقصى الحالات في ثلاثة أيام . وبعبارة أخرى فإن الواحات التواتية تشكل في الواقع مراحل تتوافر فيها كل أسباب العيش للقوافل التجارية . هذا مع العلم أن هذه الواحات تغطي مسافات في طريق القوافل قد تصل إلى ثلاثمائة كيلومتر . فإذا أخذنا على سبيل المثال قافلة تجارية وصلت من السودان إلى قصر إن صالح أو قصر أقبلي في واحات تيدكلت فإن بإمكانها بعد ذلك أن تتابع رحلتها من واحة إلى أخرى إلى واد الساورة أو إلى نهاية واحات كورارة في الشمال الشرقي لتوات في مسافة قد تصل إلى ما يزيد عن الثلاثمائة كيلومتر يتوافر فيها الكلأ للدواب والماء والمؤن . وهذا رقم لا يستهان به في الرحلة عبر الصحراء . هذا ما يتعلق بالواحات ذاتها ، أما المجال العام للمسالك التي تربط توات بالمغرب الأقصى وطرابلس عبر غدامس ومدن تونس وبجاية والجزائر عبر ورغلة في الشمال وتومبكتو ومرتفعات الهكار في الجنوب تتوافر بها نقط مائية خاصة في الأودية القريبة من توات كواد الميا وواد ميكدن . وحتى في العرق الغربي الكبير الذي يعتبر أهم حاجز طبيعي في الوصول إلى توات توجد به أودية في حافيته الشرقية والغربية تتوفر بها نقط مائية . إلا أن مسالك العرق تستعملها عادة القبائل الرحل في الجنوب الغربي للجزائر التي كانت في الماضي تنظم رحلات موسمية إلى توات للتبضع منها وتصريف منتجاتها الحيوانية . وتجدر الاشارة هنا إلى نوع خاص من نقط التموين بالماء في مجال يعرف بتلماس . وتلماس عبارة عن خزانات طبيعية للماء في أراض صلصالية تحفظ من التبخر والردم بغطاء صخري ينزع عند الاستعمال . ويوجد هذا النوع في الحافة الشرقية لهضبة تادمايت . ومما

(4) تقييد ما اشتمل عليه اقليم توات من الايالة السعيدة ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1962 ، ص 73 .

يدل على أهمية النقط المائية في المجال الصحراوي حقول طبونيمية المنطقة بأسماء تبتديء عادة بمفردة «حاسي» (التي تعني البئر) كحاسي أنفل وحاسي اللفاعي. وقد حول الفرنسيون هذه النقط المائية إلى حصون عسكرية – بعد أن غيروا أسماءها بأخرى تبتديء بحصن (Fort) وتنتهي بأسماء أحد ضباط الاحتلال – من أجل السيطرة على مسالك القوافل وإحكام قبضتهم على الصحراء.

ومن العوامل الطبيعية الأخرى عامل المناخ الذي يؤثر بكيفية مباشرة على توقيت الرحلات في كل سنة. ذلك أن بعض المسالك لا يمكن استعمالها طيلة السنة، إذ أنها في أوقات معينة من السنة تكون غير صالحة للاستعمال إما بسبب الزوابع الرملية أو الحر الشديد أو لعدم توفر الكلأ فيها للدواب. كل هذه العوامل الطبيعية يقام لها اعتبار في أهمية المسالك وتفضيل بعضها عن البعض الآخر. ورغم ما تكتسيه العوامل الطبيعية في اختيار المسالك إلا أنها لا تكفي وحدها لتفسير الأهمية التي اتخذتها بعض المسالك دون غيرها. إذ لابد من اعتبار العامل الانساني الذي يمكن أن ندخل فيه الاقتصاد والسلطة السياسية والنفوذ الديني والقبائل الرحل المساهمة في تجارة القوافل.

في اعتبارنا لهذا العامل الانساني، نرى من الضروري التذكير ببعض المعطيات من تاريخ المنطقة. فإلى بداية القرن الحالي اعتبرت المسالك الصحراوية ذات أهمية استراتيجية كبرى بالنسبة للدول التي تعاقبت على حكم المنطقة سواء في شمال الصحراء أو في جنوبها. إذ شكلت الهيمنة على المسالك والمراكز التجارية التي تنتهي إليها عنصرا مهما في دعم النفوذ السياسي للدول واقتصادها وضمان بقائها. كما أن القبائل التي تمر المسالك في مجال نفوذها كانت تساهم إيجابا أو سلبا في ازدهار المسالك أو انحطاطها. وكذا الشأن بالنسبة للزوايا المحلية أو الاقليمية التي كانت تستغل نفوذها في حماية القوافل المستعملة للمسالك الواقعة تحت نفوذها. وعلى سبيل المثال اهتم المخزن المغربي بالمسالك التي تربط توات بفجيج وتافيلالت عبر واد الساورة. وقد تمكنا من الحصول على عدد من الرسائل المتبادلة بين سكان واحات توات والمخزن المغربي في نهاية القرن التاسع عشر حول مسألة الأمن والمرور بمسلك واد الساورة. وفي هذا الصدد نورد هذا المقتطف من رسالة بعث بها السلطان مولاي الحسن في سنة 1309 إلى سكان واد الساورة «خدامنا أهل الساورة ... وبعد فإن أهل توات رفعوا شكواهم لجانبنا الشريف متضررين بما يلحقهم من أولاد حمزة في الطرقات المارين عليها لأجل الميرة وغيرها واستأذنوا جنابنا العالي بالله في المرور بأيالتنا الشريفة كنواحيكم ونواحي فجيج و نواحي

ذوي منيع(5) وعلى العموم كان المخزن المغربي يعتبر القبائل التي تمر بها المسالك مسؤولة عن الأمن فيها ويحملها غرامة ما يقع فيها من سطو ونهب للقوافل التجارية ، وربما وصل ذلك إلى حملات تأديبية إن كان باستطاعته تنظيم حركات أو حملات إليها . وفي المجال الصحراوي كان المخزن يعتبر القصور والقبائل التي يمر بها المسلك مسؤولة عن العناية بالمرافق الحيوية كالآبار والنزلات بالاضافة إلى الأمن . وفي هذا الشأن وردت مراسلات مخزنية مع الزوايا المحلية كزاوية القنادسة وزاوية كرزاز ، حيث كانت حماية الطريق من المهام التي يوكلها المخزن لزاوايا المنطقة في إطار المصالح المتبادلة بين الطرفين . كما أن الزوايا كانت تستفيد من بسط حمايتها للقوافل مقابل ما تتلقاه من واجب «الزطاطة» . وعلى العموم فإن مسؤولية أمن المسالك المارة بتوات كانت موزعة بين سلطة المخزن المغربي فيما يتعلق بالمسالك التي تربط توات بتافيلالت وفجيج وحتى بالنسبة لواحات توات نفسها التي كانت تخضع بكيفية أو بأخرى لسلطة المخزن . كما أن قبائل الرحل ، سواء منها الواقعة تحت النفوذ المخزني أو التي لا تقع تحته ، كانت تعتبر المسالك المارة في مجال نفوذها ملكا لها ومصدرا من مصادرها الاقتصادية . وهكذا مارست بعض القبائل نفوذا قويا بالنسبة لبعض المسالك ، إذ نجد مثلا قبيلة أولاد سيد الشيخ تراقب مسالك العرق الغربي الكبير خاصة المسالك الغربية منه . وكانت قبيلة الشعانبة تراقب المسالك الواقعة في الجنوب الشرقي للعرق والتي تربط كورارة بورغلة وغرداية . أما المسالك الجنوبية ، فكانت تقع تحت نفوذ التوارك وقبيلة أولاد زنان وزاوية سيدي بونعامة . وبعض هذه القبائل لم يكن يكتفي بحماية القوافل والطرقات بل كان يساهم في التجارة ، إما بالقيام بخدمات النقل وحدها أو بالمساهمة الفعلية بالمتاجرة بين توات والمناطق الأخرى كما كانت تفعل قبيلتا بني آمحمد و آيت خباش التي توجد مواطنها بالقرب من تافيلالت .

وخلاصة لما سبق فإن توات بموقعها الجغرافي المتفرد احتلت مكانة استراتيجية في المسالك الصحراوية الرابطة بين شمال الصحراء وجنوبها ، وإن هذه المسالك خضعت في تخطيطها وازدهارها لعدد من العوامل الطبيعية والبشرية . وفيما يلي وصف موجز لهذه المسالك المارة بتوات .

I – المسالك التي تربط توات بجنوب الصحراء :

ترتبط توات انطلاقا من تيدكلت بأهم المراكز التجارية على نهر النيجر . وأهم

(5) تقييد ما اشتمل عليه إقليم توات من الايالة السعيدة ، المطبعة الملكية ، الرباط ، 1962 ، ص 73 .

المسالك التي بقيت مستعملة من طرف القوافل إلى نهاية القرن التاسع عشر مسلكان : مسلك يربط أقبلي بتومبكتو (حوالي 1400 كلم) في خط شبه عمودي يمر قسمه الشمالي عبر طرق الشاش وأهم المراحل فيه بير الحجاج وبير الذهب وتين حيا . وعلى العموم تتوفر النقط المائية بمعدل نقطة مائية بالنسبة لكل مرحلتين باستثناء حمادة تنزروفت (سبع مراحل بدون ماء) . ويمر هذا المسلك بملاحة تاوديني ومركز أروان التجاري . وتستغرق الرحلة عبر هذا المسلك ما بين 20 يوما و 30 حسب حمولة الدواب .

أما المسلك الثاني فيربط مجموعتي قصور إِنْ صالح وأقبلي بالمراكز التجارية في الضفة الشرقية لنهر النيجر كمركزي كانو وكوكا . ويمر هذا المسلك بمرتفعات تاسيلي عبر أدغاغ . وتتوفر النقط المائية بمعدل نقطة في كل مرحلتين . وتقطع القوافل هذا المسلك في 40 يوما .

وأهمية هذين المسلكين لم تشكلها المزايا الطبيعية فقط بل كان للتنظيمات الاجتماعية والدينية دور في تلك الأهمية . ففي المسلك الأول كانت القوافل تقطع المسلك تحت رعاية زاوية سيدي بونعامة وبمشاركة أولاد زنان الذين كان منهم فريق مدرب في إرشاد القوافل بين أقبلي وتومبكتو . وقد كانت القوافل القادمة من غدامس وفجيج وتافيلالت ومن توات نفسها تتجمع في أقبلي قبل أن تأخذ طريقها في قافلة جماعية في اتجاه الجنوب . وكانت الرحلات تنظم بمعدل رحلتين في السنة .

II – المسالك التي تربط توات بمراكز الشمال :

1 – مسلك إن صالح – غدامس :

يقع في الاتجاه الشمال الشرقي بالنسبة لتوات . وتكمن أهمية غدامس في انفتاحها على تجارة البحر الأبيض المتوسط عبر طرابلس وقابس وتونس . وطرابلس كانت أهم نهاية في هذا المسلك حيث كانت على اتصال دائم بغدامس التي تتبضع منها البضائع السودانية التي تتصرف فيما بعد في مالطا والمدن الايطالية . و قد ازدهر هذا المسلك في القرن الثامن عشر على حساب الأزمة التي عرفتها التجارة المغربية . وقد حافظ هذا المسلك على ازدهار نسبي إلى نهاية القرن التاسع عشر وذلك نتيجة التهميش النسبي لتافيلالت في تجارة البضائع المصدرة من الصويرة . وهذا المسلك يشكل قسما من الطريق الذي كان المغاربة يسلكونه في طريقهم إلى الديار المقدسة .

يمر مسلك إن صالح – غدامس جنوب العرق الكبير الشرقي ، وأهم مراحله انطلاقا من توات حاسي أولاد مسعود وفارس أم الليل وعرق الريخ و تلماس حميان والواد المالح وتينكورت وبير الكفاف وحاسي تيفشاين قبل الوصول إلى غدامس . وقد كانت هذه المراكز تقع إلى الشمال من منتجعات توارگ الشمال التي كانت تراقب هذا المسلك وتسير القوافل في حمايتها . وقد تأثر العمل بهذا المسلك في الربع الأخير من القرن التاسع عشر نتيجة الصراعات الداخلية بين قبائل التوارگ . وقد استغلت قبيلة الشعانبة ذلك لتحويل تجارة المسلك إلى مسلك يحاذي شمال العرق الكبير الشرقي يمر بالقليعة (أنظر الخريطة) في مجال نفوذها .

2 – توات – وسط الجزائر وشرقها :

ترتبط توات بوسط الجزائر وشرقها بعدة مسالك تقع شرق العرق الكبير الغربي . ومن أهم هذه المسالك المسلك الذي يربط توات بغرداية جنوب التل الصحراوي حيث يعتبر القليعة أهم نقطة فيه . إذ من هذا المركز يتفرع مسلكان يتجه أحدهما إلى ڤورارة عبر واد ميكدن والثاني يتجه إلى تيدكلت عبر واد الميا . وقد اهتم الفرنسيون باحتلال نقط الماء الواقعة على هذين المسلكين في الربع الأخير من القرن التاسع عشر . وتحولت تلك النقط إلى مراكز عسكرية استغلت فيما بعد في احتلال توات .

أشهر الآبار على واد ميكدن (أو القليعة – ڤورارة) انطلاقا من القليعة : حاسي النبكة وحاسي الأحمر وحاسي إن مال وحاسي بوخنافسي وحاسي لحمر (أصبح اسم فور ماك ماهون Fort Mac Mahon بعد الاحتلال) و حاسي التارڤي وحاسي الشويرف وحاسي اللفاعي وحاسي فريسكا وحاسي موسى ومنه إلى سبخة كورارة .

وأما الآبار الواقعة على واد الميا (أو القليعة – تيدكلت) فهي انطلاقا من القليعة حاسي البرانية وحاسي الحاج موسى وحاسي بن الشويلي و حاسي الشبانة (Fort Miribel بعد الاحتلال) وحاسي سيد الجيلالي و تلماس فركلة وتلماس الأعصم وعين قطارة والمنكار ومنها إلى فجارة الزوا وهي أولى الواحات في تيدكلت من ناحية الشرق .

3 – توات – الجنوب الوهراني :

أسهل الطرق التي تربط الجنوب الوهراني هو الطريق المار بفجيج الذي سنعود إلى ذكره . أما المسالك الأخرى فهي صعبة الاستعمال بسبب مرورها عبر العرق

الكبير الغربي . وأهم مسلك فيها مسلك واد الناموس الذي ينطلق من عين الصفرا وينتهي في شبه خط مستقيم عند سبخة ڤورارة . ومراحل هذا المسلك من الجنوب إلى الشمال هي : حاسي الحمري وراس الما وخلوة سيدي ابراهيم وحاسي التمورة . وهناك مسلك آخر يعرف بمسلك أولاد سيد الشيخ وهو يصل بيوض سيد الشيخ بواحة تينركوك (شمال ڤورارة) عبر النقط المائية التالية من الجنوب إلى الشمال : تبلكوزة وحاسي المعازي و حاسي العز وحاسي الشيخ . وبالاضافة إلى هذين المسلكين توجد معابر أخرى للعرق إلا أنها قليلة الأهمية . وقد سبق أن أشرنا إلى أن مسالك العرق مسالك محدودة الاستعمال على النطاق الاقليمي إذ تستعملها قبائل الرحل في الجنوب الوهراني التي تتعامل مع الواحات في نجعة موسمية تتفق و موسم إنتاج التمور في الواحات .

4 – توات – فجيج وتافيلالت :

لعل مسلك واد الساورة الذي يربط توات بتافيلالت وفجيج والجنوب الوهراني أهم مسلك يصل توات بالشمال . فإذا كانت المسالك الأخرى عبارة عن نقط مائية متباعدة فإن هذا المسلك تشكله في الواقع واحات متصلة من زاوية الرڨان (آخر واحة في جنوب توات) إلى قصر ايغلي عند ملتقى وادي زوزفانة وڨير . بالاضافة إلى أن هذا المسلك يجنب القوافل المرور بالعرق الكبير الغربي وحمادة ڨير وعرق الشاش ذلك أن مجرى الساورة يشكل واديا بين العرق وحمادة ڨير في شماله وبين عرق الشاش (في غربه) و العرق الكبير الغربي في جنوبه . ولعل هذا ما يفسر اتصال توات بالمغرب الأقصى أكثر من اتصالها بالجنوب الوهراني على الرغم من أن موقعها يبدو لمن يتطلع في خريطة المنطقة أقرب إلى الجنوب الوهراني؛ إذ إن العرق الكبير الغربي شكل حاجزا طبيعيا بين توات والجنوب الوهراني . وهذا ما يفسر أيضا خضوع توات لنفوذ المخزن المغربي طوال عدة قرون لم ينته إلا بالاحتلال الفرنسي للمنطقة في مطلع هذا القرن . كما كانت لأهمية مسلك واد الساورة وطمع الفرنسيين في الاستيلاء عليه آثار وخيمة على المناطق إلى الشمال منه . فبعد أن تبين للفرنسيين أهمية المسلك في الوصول لتوات والمناطق الصحراوية الأخرى لا لتوفر الماء فيه فقط ولكن لما له من إمكانات في تحمل مرور أعداد كبيرة من الجند ، سعى الفرنسيون إلى احتلال منطقة جبل بشار واقتطاعها من المغرب قبل إعلان معاهدة الحماية .

يتشكل واد الساورة عند ملتقى واد زرزفانة وڨير ويمتد بعد ذلك في خط

منحرف في اتجاه الشرق مسافة 240 كلم . وفي شمال الوادي توجد قصر بني عباس وفي القسم الجنوبي قصور الغنانمة حيث كانت قبيلة الغنانمة تراقب هذا المسلك وتعتبره في مجال نفوذها . كما تميز هذا المسلك بوجود زاوية كرزاز التي كان لها دور في حماية هذا المسلك . وعلى العموم فإن القبائل الواقعة في هذا المسلك أو في شماله كقبائل أولاد جرير وذوي منيع أو في شماله الغربي كقبائل أيت خباش (فرع من أيت عطا) وبني آمحمد ، كانت كلها تخضع لنفوذ المخزن المغربي إلى بداية القرن الحالي ، وبهذا كان هذا المسلك بكامله تحت نفوذ المخزن المغربي .

يتصل هذا المسلك بتافيلالت عبر عدد من المعابر التي كانت الغاية منها قطع حمادة كير . ومن هذه المعابر معبر يمر تبلبالة الذي يصل كير بجنوب تافيلالت ومعبر في الشمال يصل بودنيب (على واد كير) بمدغرة و هو يقطع الحمادة عندما يضيق اتساعها (80 كلم) . ومسالك تافيلالت كانت مراقبة من طرف ذوي منيع ومن طرف أيت خباش وبني آمحمد التي كانت تقوم بالرحلة إلى توات . وقد عرفت الحركة التجارية تقلصا في حجم البضائع والقوافل في القرن التاسع عشر نتيجة تهميش تافيلالت في تجارة الصويرة . إلا أن هذا لم يمنع من استمرار المسلك في الاستعمال لأغراض متعددة وفي نقل البضائع التي كانت تصرف في تافيلالت وفاس .

وكخلاصة عامة فإن تخطيط المسالك الصحراوية تحكمت فيه عوامل طبيعية وبشرية . كما أن ازدهار هذه المسالك أو تدهورها ما هو إلا نتيجة تفاعل هذه العوامل إذ يكفي مثلا أن تنشأ صراعات ما بين بعض القبائل المتحكمة في مسلك ما ليفقد هذا المسلك أهميته أو أن تحدث تغيرات مناخية ليصبح المسلك مهمشا . بالاضافة إلى هذا فإن المسالك احتلت أهمية استراتيجية بالنسبة لدول المنطقة وبالنسبة لمناطق الاستقرار والقبائل التي تمر بها . وكان آخر اهتمام بهذه المسالك هو اهتمام الفرنسيين بها في إطار مشروعهم الاستعماري في احتلال شمال غرب افريقيا ، إذ ساهم اهتمامهم هذا في تغيير الخريطة السياسية للمنطقة حيث أن أهمية مسلك الساورة الرابط بين المغرب وتوات عجل باحتلال الفرنسيين لمنطقة بشار والمناطق المتاخمة لها بهدف عزل توات عن المغرب والسيطرة على المسلك المذكور . وقد كان ذلك من بين أسباب نزاعات الحدود التي مازالت تعاني منها قبائل المنطقة أو تؤدي ثمنها باهضا الشعوب المغاربية .

المدرسة الكنتية كأبرز قناة بين الافريقيتين في العصر الحديث

محمد المنوني
كلية الآداب – الرباط

المدرسة الكنتية القادرية : مركزها القيادي في أزواد بصحراء مالي : المنطقة التي يتواجد بها كثير من قبيلة كنت ، وبها كان الشيخ المختار بن أحمد بن أبي بكر الوافي ، من ذرية الفاتح عقبة بن نافع ، وهو من مواليد 1142 / «29 – 1730» ، وتوفي عام 1226 / «1812»(1)

وإلى تأسيسه للطريقة المختارية القادرية ، يعتبر علما لامعا في عطائه المعرفي ،

(1) ترجمته ومعه زوجه هي موضوع كتاب «الطرائف التلائد» ، أتى الذكر عند لائحة المؤلفات الكنتية بالملحق 1 . وله ترجمة مختصرة عند أحمد بن الأمين في «الوسيط» ، المطبعة الجمالية بمصر 1329 / 1911 : ص 356 ثم عند النبهاني في «جامع كرامات الأولياء» ، مطبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر 1329 هـ : 2 / 247 – 248 .

وسلوكه الاسلامي ، فيقول عنه إبن مخلوف(2) : «كان من أعلام العلماء ، والأئمة الفضلاء ، وأحد الأساتذة المشهورين ، والجهابذة المعروفين» .

وفي تعبير مؤلف الوسيط (3) : «من أفراد عصره علما وصلاحا» .
بينما يصنفه أبو إسحاق التادلي(4) في عداد الذين جددوا العلوم والدين بالمغرب .

وفضلا عن مبادراته الهادفة في ميادين التعليم والارشاد ، خلف مؤلفات رصينة تتوزعها مواد الفقه والتصوف واللغة والأدب(5) ، وبين موضوعاته الموسوعية نشير إلى «نزهة الراوي وبغية الحاوي»(6) ، في مجلد ضخم أو سفرين حسب كتابة نسخه ، صنفه في 21 بابا نثر فيها مسائل من التوحيد ، والهيئة ، والسيرة النبوية ، والتصوف ، والوعظ والحديث ، والنباتات والمعادن والأحجار ، والتاريخ .

وقد أثار هذا الكتاب اهتمام الشيخ رفاعة(7) ، فأشار إليه في رحلته وهو يتحدث عن كروية الأرض : «وممن قال من علماء المغرب بأن الأرض مستديرة وأنها سائرة : العلامة الشيخ مختار الكنتاوي الكنتاوي بأرض أزوات بقرب بلاد تمبكتو ... وقد ألف كتابا وسماه «النزهة» ، جمع فيه جملة علوم ، فذكر – بالمناسبة – علم الهيئة ، فتكلم على كروية الأرض وعلى سيرها ووضح ذلك ، فتلخص من كلامه أن الأرض كرة ، ولا يضر اعتقاد تحركها أو سكونها» .
ومن سيرته أنه كان يهتم بتثقيف النساء ، فيذكر عنه ابنه الشيخ محمد بن المختار(8) : أنه ختم «المختصر الخليلي» تدريسا هو وزوجه في يوم واحد ، في خيمة واحدة : الشيخ للرجال ، وزوجه للنساء .

ونفس المصدر يسجل عن المترجم أنه كان يعامل الرقيق معاملة إسلامية ، فيكسوهم كسوة الأحرار ، وينفق عليهم نفقة العيال ، ويقوم عليهم بالآداب قيام السائس العالم ، ويحذر من تعذيبهم(9) .

وبهذه السيرة وأشباهها انتشر للشيخ المختار الكبير صيت امتد إلى مصر ، وانتهى

(2) «شجرة النور الزكية» ، المطبعة السلفية بمصر 1349 هـ : ص 377 .
(3) ص 356 .
(4) في مقيدة له ذكر فيها معلومات عن حياته ورحلته المشرقية : مخطوطة .
(5) ستعرض جملة منها عند الملحق 1 .
(6) ستأتي الاشارة إلى ست مخطوطات منها عند الملحق ذاته .
(7) «تخليص الابريز إلى تلخيص باريز» دار الطباعة بالقاهرة 1265 هـ : ص 33 .
(8) «الطرائف والتلائد» .
(9) بالاضافة إلى هذا المصدر ، نشير إلى تأليف الشيخ المختار الكبير : «المختصر الجامع لما تدعو إليه الحاجة ◄

إلى الشيخ مرتضى الزبيدي ، فراسله وامده (10) .

وبعد وفاته تسلسلت ريادة المدرسة الكنتية في عقبه ، بدءا من ابنه محمد بن المختار ، ت 1241 / «1828» ، وهو لا يقصر عن والده علما وتأليفا وسلوكا . ثم خلفه ابنه المختار الخليفة أو المختار الحفيد ، بن محمد بن المختار الكبير ، ت 1263 / «1847» .

وبعده انتقلت الرئاسة إلى أخيه أحمد البكاي بن محمد بن المختار الكبير ، ت 1281 / «1865» .

وسيكون أحمد البكاي رابع الشيوخ الأولين للمدرسة الكنتية ، وقد كانوا – ومعهم تلاميذهم – يتبنون الدعوة إلى إحياء السنة وإماتة البدعة ، وذلك ما يلاحظه محمد الأمين الصحراوي(11) في هذه القولة : «ولم نجد – اليوم – طائفة على نهج السنة المحمدية إلا طريقتين : طريقة شيخنا سيدنا المختار الكنتي ، وطريق شيخنا سيدي أحمد ابن ناصر ، وهاتان الطريقتان عزتا وقلتا من أجل السنة» .

وإلى هذا فإن أطر المدرسة المختارية – شيوخا وتلاميذ – جميعهم نشروا الاسلام إلى قلب أفريقية ، ووقفوا سدا منيعا ضدا على التبشير المسيحي ، وتوزع نشاطهم بين ثلاثة مراكز :

الزاوية القادرية البكائية بأزواد ، وتمثل القاعدة المركزية لينتشر الدعاة منها لى تمبكتو وما وراءها .
ثم الزاوية القادرية في أدرار بالصحراء .
الثالث: الذين في والاته ، وينتشرون إلى السودان الغربي(12) .

وعن حماس الكنتية في نشر الاسلام بأفريقية الغربية ، يقدم مؤرخ فرنسي(13) هذه الشهادة : « ... وبالاجمال : فالقادرية هم أحمس مبشري الدين الاسلامي في غربي إفريقية من السنيغال إلى بنين ، التي بقرب مصب النيجر ، وهم ينشرون

◀ من الحر والعبد والمرأة والصبي» ، وهو من المؤلفات الواردة ضمن اللائحة الأولى .

(10) «فتح الشكور» تأليف الطالب محمد بن أبي بكر الصديق البرتلي الولاتي ، دار الغرب الاسلامي – بيروت 1401 / 1981 : ص 153 عند ترجمته .

(11) «المجد الطارف والتالد» خ ،ع ،ك 588 .

(12) «حاضر العالم الاسلامي» ، دار الفكر : الطبعة الثالثة 1391 / 1971 : 2 / 395

(13) «المصدر» 2 / 395 – 396 .

الاسلام بطريقة سلمية : أي بالاستعمار والتجارة والتعليم ، وتجد التجار الذين من السونينكه والماندجو المنتشرين على مدن النيجر وفي بلاد كارتا وماسينة : كلهم من مريدي الطريقة القادرية .

ومن مريديهم من يخدمون في مهنة الكتابة والتعليم ، ويفتحون كتاتيب ليس في زوايا الطريقة فقط ، بل وفي كل القرى ، فيلقنون صغار الزنج الدين الاسلامي أثناء التعليم . ويرسلون النجباء من تلاميذهم على نفقة الزوايا إلى مدارس طرابلس والقيروان ، وعامع القرويين بفاس ، والجامع الأزهر بمصر ، فيخرجون من هناك طلبة مجازين أي أساتذة ، ويعودون إلى تلك البلاد لأجل مقاومة التبشير المسيحي في السودان» .

وهنا تنتهي فقرة المؤرخ الفرنسي ، ومنها ومن شواهد آتية ، نتبين أن الطريقة الكنتية ليست – كما يتبادر – جماعات أوراد وأذكار ، وإنما تضيف لذلك حماسا إسلاميا لنشر الدعوة المحمدية ، ومقاومة المد المسيحي والتدخل الأجنبي .

★

★ ★

حتى إذا سرنا معها إلى الصحراء الكبرى والمغرب ، نعيش مع أعمالها لاحياء السنة وإماتة البدعة ، ومع نداءاتها إلى الاستعداد لمقاومة التدخل الأجنبي ، وكان بين الدعاة بالصحراء زمر من تلاميذ الكنتية ، ويتقدمهم الشيخ سيديّ بن المختار بن الهيب الأبييري ثم الانتشائي ، ت 1283 أو نحوها «66 – 1867»(14) ، وهو الذي له الحظ الموفور واليد البيضاء ، في نشر الطريقة المختارية بالصحراء والسودان :

وقد أنجب الشيخ سيديّ ابنه سيدي محمد ، ت 1284 أو نحوها «67 – 1868»(15) ، واشتهر هذا – أكثر – بقصيدته البطولية التي تترجم هموم المدرسة الكنتية ، وفيها ينذر بأزمة الصحراء أمام التهديد الأجنبي ، ويحرض على الاستعداد وجمع الكلمة أمام الخطر المشترك ، وهي قصيدة مطولة(16) ، ومن

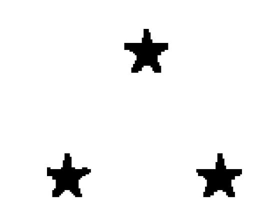
(14) ترجمته في «الوسيط» ص 242 – 245 ، وإلى الشيخ سيدي يذكر الشيخ أحمد البكاي مجموعة من أهل الصحراء الذين انتسبوا للكنتية من تلاميذ الشيخين المختار الكبير وابنه سيدي محمد ، حسب أوائل «فتح القدوس» أتي الذكر عند اللائحة الأولى .

(15) ترجمته في «الوسيط» ص 245 – 279 .

(16) القصيدة – كاملة – في «الوسيط» ص 248 – 254 .

صرخاتها :

فيــا للمسلــمين لها أمــــورا	لها الأكبــاد تنفطــر انفطــارا
تهاونتم بموقعهــــا ومـــــا إن	تهاونتم بها إلا اغتـــــــرارا
لصوص لا تخاف الباس منكم	ولا العقبى فترضى أن تدارا ...
وروم عاينوا في الديـن ضعفـا	فراموا كلمـا رامـوا اختبـارا
فــإن أنتم سعـــيتم وانتــدبتم	برغـم منهم ازدجروا ازدجـارا
وإن أنتم تكـــــاسلتم وخمتم	برغـم منكـم ابتـدروا ابتـدارا
فألفـــوكم – كما يبغون – فـــوضى	حيارى لا انتداب ولا ائتمارا ...
ولم أعرف وسوف ترون عما	قليـل صبـح ليلكـم استنـارا



وعند هذه المقتطفات ننتقل من الصحراء إلى المغرب الأقصى ، حيث ظهرت به الطريقة الكنتية خلال القرن 13 / 19 ، ومع مر الزمن صارت من أشهر الطرق بالمغرب(17) ، وتأدى إليه إشعاعها من عدة قنوات تتصاعد إلى الشيخ المختار الكنتي الكبير ، وعنه ، أخذها من سوس :

1 – العالم الجراري : يحيى بن عبد الله بن مسعود البكري ، ت حوالي 1260 / «1844»(18) .

2 – ثم الفقيه ابن دحّ : محمد ابن أحمد الأزموري ، نزيل المدينة المنورة ودفين بقيعها عام 1284 / «67 – 1868»(19) .

وقد شد الرحلة من أزمور إلى صحراء أزواد يقصد الشيخ محمد بن المختار الكبير ، فلما وجده توفي أخذ عن ابنه الشيخ المختار الحفيد ، ولقي – أيضا – اخاه : الشيخ أحمد البكاي ، ثم أقام عندهم عشر سنوات عاد بعدها إلى أزمور ، حيث انتصب لنشر الكنتية ، وصار مقصد الراغبين في الانتساب

(17) «جامع كرامات الأولياء» 2 / 248 .

(18) فهرس الجراري : «ضوء المصباح ...» خ ،س 4275 ، وترجمته مؤلفه عند الكتاني في «فهرس الفهارس» المطبعة الجديدة بفاس 1347 : 2 / 119 – 121 .

(19) ترجمته عند محمد بن المعطي السرغيني ثم المراكشي ، في فهرسه : «حديقة الأزهار ...» : مخطوطة خ ،ع ،ك 1287 ، ثم عند ابن ابراهيم في «الاعلام» ، المطبعة الملكية 1977 : 6 / 317 – 321 .

لها ، وبذلك تعدد الأخذون عنه من مختلف جهات المغرب ، وسترد أسماء زمرة منهم عند أواخر هذا العرض .

3 – وعن الشيخ المختار الحفيد تلقاها البربوشي : البشير بن عبد الحي الصحراوي الرحماني ، دفين مراكش حدود عام 1290 / «73 – 1874»(20)

4 – وبين هؤلاء من انخرط في هذه الطائفة تلقيا لها من أربعة من الشيوخ ، والمعني بالأمر هو الدغوغي : بوشعيب بن الجيلاني البيضاوي ، فيأخذها عن سيديّ بن المختار سابق الذكر ، وأحمد المعروف بسيديّ ، وابن الأعمش ، ومحمد بن المختار الجكني ، والأربعة من تلاميذ الشيخ المختار الكبير(21) ، وكانت وفاة أبي شعيب بعد 1330 / 1912

5 – وممن أخذ عن الشيخ أحمد البكاي : باشا فاس عبد الله بن أحماد البخاري السوسي ، ت 1304 / 1886(22) ، توجه عنده إلى الصحراء ، وتلقى منه الطريقة لنفسه ، وللسلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان ، ولأخيه الوزير موسى بن احماد(23) .

6 – وإلى هؤلاء نشير إلى بعض الوافدين الذين ساهموا في نشر هذه المدرسة ، بدءا من محمد السوداني تلميذ الشيخ المختار الكبير ، وتلقاها منه محمد بن عبد الحفيظ بن عبد الرحمان الدباغ الحسني الفاسي دعي بوطربوش(24) .

7 – ومن الوافدين : محمد بن حبيب الله الصغير الشنحيطي ، ومنه تلقاها العربي بن الهاشمي العزوزي الزرهوني ثم الفاسي(25)

8 – ثم محمد السوداني دفين مراكش ، من تلاميذ الشيخ أحمد البكاي(26)

(20) ترجمته «بالمصدر» 3 / 77

(21) «معجم الشيوخ» لعبد الحفيظ الفاسي مطبعة فاس بالمدينة الجديدة 1350 هـ : 2 / 141 عند ترجمته

(22) ترجمته عند ابن ابراهيم في «الاعلام» 8 / 338 .

(23) المصدر 8 / 54 ، وعبد الله بن أحماد الذي نعلق عليه هو باني الزاوية الكنتية في حي صدراته بمكناس ، وسترد وثيقة تحبيسه لها عند الملحق 3 ، وعن ممارسة السلطان محمد الرابع للطريقة الكنتية : يذكر محمد المختار السوسي أنه رأى عند مولاي مبارك العلوي الأستاذ بالحمراء ، كناشا فيه القدر الذي يذكره من الأذكار في ورد شيخه الكنتي ...
«حول مائدة الغداء» مطبعة الساحل – الرباط 1983 : ص 21 .

(24) «معجم الشيوخ» 1 / 150 ، وترجمته الدباغ عند الكتاني في «سلوة الأنفاس» ط . ف : 1 / 327 – 329 .

(25) «فهرس الفهارس» 2 / 170 عند ترجمة العربي الزرهوني .

(26) ابن الموقت في «السعادة الأبدية» ط ،ف : 2 / 105 – 106 .

فهذه عشرة أسماء كنماذج للشيوخ الأولين الذين أسهموا في نشر المدرسة الكنتية بالمغرب .

★

★ ★

ونصل – الآن – إلى تبريز التعاليم الكنتية للمريدين بالمغرب ، وبينها توجيهات تتصل بالحياة الفردية والاجتماعية والدفاع عن الاسلام ، ولدينا في هذا الصدد رسالتان توجيهيتان : أولاهما للشيخ المختار الحفيد ، وقد خاطب بها السلطان العلوي مولاي عبد الرحمان بن هشام ، ونقتبس منها إشارات هادفة ، ريثما يأتي نصها كاملا عند الملحق 2 .
فتبتدي بتحليل حديث «الدين النصيحة لله ولكتابه ولرسوله ولأيمة المسلمين وخاصتهم» .

فعن القرآن الكريم تحض الرسالة على تفهم علومه ، وإكرامه ، والاعتناء بمواعظه ، والتفكر في عجائبه .

وعند نصيحة الأمة لأمرائها : تشرحها الرسالة بمعاونتهم على الحق ، وأمرهم به ، وتذكيرهم بلطف ورفق ، وإعلامهم بما غفلوا عنه من أمور المسلمين وحقوقهم ، والدعاء بالصلاح لهم ، وترك الخروج عليهم ، والجهاد ، وأداء الزكاة إليهم ، وامتثال أمرهم .

وعن العلماء تأتي هذه الفقرة : «وليس المراد من تزيا بزيهم وادعى العلم وأكل الدنيا بالدين ، فإن نصيحتهم ونصح عامة المسلمين : أن ينسلخوا عما هم عليه» .
وتقول الرسالة عن تعميم التعليم : «والناس كلهم محتاجون إلى العلم ، وهو زينة لهم ووسيلة ، وأشد الناس احتياجا إليه ، وأكملهم زينة به : الأمراء ...».

ولا ينسى الخطاب الكنتي أن يثير قضية الحجاب ، فيندب إلى تخفيف أمره ، تفاديا من دفع البوابين الشكاة المظلومين قبل انتهاء شكايتهم ، لأخذهم على ذلك الرشا من الظلام الغصاب ، ومكث المظلوم الشهر والشهرين على الأبواب ، لا يستطيع إبلاغ حاجته ولا يجد من يبلغها حتى ينصرف بغيرها ، أو يبلغها بعد جهد جهيد ، وعلاج شديد .

وقد يحتبس أكثرهم على رفع الشكاية ، لعلمه بطول تردده على الأبواب ، وشدة

من العمال ، وتمالئهم وترشيهم على عدم إيصال الشكايات ، فيضيع بذلك كثير من الناس وحقوقهم .

وبعد هذه الاقتباسات القليلة من الرسالة الكنتية إلى الحضرة السلطانية ، نعقب بإشارات مقتضبة من «النصيحة» التي كتبها الشيخ أحمد البكاي ، وخاطب بها أهل الغرب عموما ، وخص أهل فاس ومكناس. مع الأكابر من أهل مراكش ، فتبتدي بدعوة صارخة لاحياء شعيرة الجهاد بالمغرب ، وخلال ذلك تثير النصيحة خطورة الواقع المعاش في هذه الفقرة : «فاخشوا فإني أخشى ، وخافوا فإني أخاف من أعداء الله وأعدائكم حتى ما تزيد مخافتي : مثل ما وقع بإفريقية ، وما فعلوا ببعض أهلها مما لم يفعله إلا فرعون ببني إسرائيل قبل موسى عليه السلام ، فإنه بلغني أنهم يضعون عليهم من سوء الملكة وتثقيل المغارم وسبي الذرية واسترقاقها ، وسبي النساء واسترقاقهن : ما يشق القلوب والأكباد ، ويذوذ السرور والرقاد ويحمل الرجال على الهم والاهتمام ، وينبههم إلى الحزم والاحتزام ، ويشغلهم ليس بالاسراج والالجام ، شغلا عن الشراب والطعام ، حتى يظهر عز الاسلام ، أنكم لستم بالأنعام».

وتنتقل «النصيحة» إلى واقع الاشتغال بمدونات الفقه ، فتوجه المريدين إلى تأصيل فروعها بالرجوع إلى القرآن والحديث : «فعليكم بكتاب ربكم ، وسنة نبيكم ، لا يزلنكم عنهما الشيطان ، ولا يزيلنكم عنهما الفتان ، فتعلموا كتاب الله واعلموه ، وتفهموه وافهموه ، ولا يكن حظكم منه رسمه ، فيكون حظكم من الاسلام إسمه...

فاعتنوا – رحمكم الله وأعانكم – بكتاب الله وسنة رسوله ، فاحموهما لتكونوا من حملتهما حملة العلم ، وحققوهما قراءة وتفسيرا وإعرابا ولغة...»

وعن سير القضاء تقول «النصيحة» : «... وقد بلغني أن القضاة فيكم أو بعضهم : قد أحدثوا في القضاء مالا يليق ، من بقاء الخصمين في الخصام مدة أشهر طويلة أو إلى عام ، وإنما للقاضي ، وإنما عليه أن يستمع للخصمين في الوقت ويفهم كلامهما ويعرف وجهه ، ثم يقطع بينهما الكلام ، ويفصل فيما لديهما الخصام ، ولا يمكّنهما من كثرة الكلام وتشغيبه ، وتطويل الخصام وتشعيبه ، فإنه ليس من السنة الحسنة ، ولا من البدع المستحسنة».

وستكون هذه الفقرة آخر الاشارات الهادفة من «نصيحة» الشيخ أحمد البكاي ، وقد رأينا فيها أفكارا عن الجهاد ، والدعوة إلى الرجوع للكتاب والسنة ، وإلى

تبسيط مسطرة القضاء ، بعدما قدمت الرسالة الأولى توجيهات حول تدبر القرآن الكريم ، وسياسة الحكم ، وعن العلماء والتعليم ، واحتجاب الحكام.

★
★ ★

وهذه المباديء كانت من العوامل التي اجتذبت للانتساب إلى هذه المدرسة زمرا من المثقفين المغاربة ، وقد تبينا خلال هذا العرض جملة منهم ، ونضيف لهم – الآن – الأسماء التالية حسب التسلسل التاريخي.

أولا : تلاميذ محمد بن أحمد بن دح

1 – **السبتي** : عبد الرحمان بن محمد الفاسي ، كان بقيد الحياة عند فاتح ربيع النبوي 1284 / «1867»(27) ، وإجازة ابن دح له بالكنتية كتبها أول نفح الطيب للشيخ المختار الكبير : خ،ع،ك 237.

2 – **الدباغ** : محمد بن عبد الهادي الحسني الفاسي ، ت 1284 / «1867» ، فيقول عنه الكتاني(28) : «من فقراء الطريقة الكنتية ، مقدما على العاملين بها من فاس ، أخذها عن الشيخ سيدي محمد بن دح... ودفن بالزاوية التي شرع في بنائها بالعيون» ، وممن أخذها عن الدباغ : الغياثي : محمد بن أحمد المخلوفي الودغيري الادريسي ، ت 1318 / 1900(29).

3 – **السرغيني** : محمد بن المعطي المراكشي ، ت 1296 / 1879(30)

4 – **الرحالي** : الجيلاني بن عزوز المكناسي ، ت 1309 / 1891 ، وكان مقدمها بمكناس(31) ، وقبل ابن دح كان أخذها عن محمد بن عبد الهادي الدباغ سابق الذكر.

5 – **الكداني** : أبو الشتاء بن عبد الله الشاوي البورزقي السطاتي قاضيها ، ت

(27) هذا هو تاريخ فراغه من تأليف رسالة «ياقوتة الأسرار» : مخطوطة خ ،س 12764 .
(28) «سلوة الأنفاس» عند ترجمته : 1 / 283 – 284 .
(29) «معجم الشيوخ» عند ترجمته : 1 / 33 – 35 .
(30) ابن ابراهيم في «الاعلام» 7 / 31 : خلال ترجمته .
(31) «إتحاف أعلام الناس» لابن زيدان المطبعة الوطنية بالرباط 1348 / 1930 : 2 / 212 – 214 .

1309 / «91 – 1892»[32].

6 –**الحاج العربي العبدوني الشاوي** ، ت 1309 / «91 – 1892» ، يذكر عنه الكانوني أنه جال بارجاء الشاوية وما إليها لنشر الكنتية ، ودخل آسفي في جملة من أتباعه ، وأسس زاوية قرب سطات[33].

7 – **ابن أهبالو** : أحمد بن عبد الرحمان العبدي الركيني ، ت 1317 / «99 – 1900»[34]

8 – **المنوني** : السعيد المعروف بالسعيدي بن محمد المهدي الحسني المكناسي ، ت 1334 / «1916» ، أخذ الكنتية عن ابن عبد الهادي الدباغ سابق الذكر ، وعن ابن دح : رحل إليه لبلده أزمور – راجلا – مرتين[35] ، وصار هو مقدم الزاوية الكنتية بمكناس بعد وفاة شيخه الرحالي سابق الذكر.

9 – **السوسي** : المختار بن باشا فاس عبد الله بن احماد البخاري المكناسي الوزير الصدر. ت 1335 / «1917»[36] ، وكان يتعاون مع السعيد المنوني – آنف الذكر – في القيام بشؤون الزاوية الكنتية بمكناس.

ثانيا : أفراد لم يذكر شيخهم الذي تلقوا منه الكنتية

10 – **دنية** : أحمد بن عبد السلام الأندلسي ثم الرباطي مفتيها ، ت 1282 / «1865»[37]

11 – **ابن يعقوب** : الحاج محمد الرباطي ، ت 1306 / 1888 ، في «الاغتباط»[38] عند ترجمته : «وكان مختاري الطريقة ، ومقدم الزاوية المختارية بالرباط حيث دفن».

12 – **دنية** : محمد بن أحمد بن علي الأندلسي ثم الرباطي من علمائها ، ت

(32) عند ترجمته من «نشر المحاسن والمئاثر لرجال الشاوية المشاهر» تأليف العربي بن قاسم الشاوي البورزقي السطاتي : مخطوط .

(33) «جواهر الكمال» : القسم المخطوط ، وفي «نشر المحاسن والمئاثر» – المشار له وشيكا – يذكر عن زاوية العبدوني أنها اشتهرت من عهد مؤسسها ، وقصدها الناس للقراءات والعلم .

(34) «جواهر الكمال» القسم المنشور في المطبعة العربية بالدار البيضاء 1356 هـ : عند ترجمته ص 33 .

(35) «إتحاف أعلام الناس» : قطعة مخطوطة خ ، س 11769 ، وللمذكور إجازة يأتي نصها عند الملحق 4

(36) «معجم الشيوخ» عند ترجمته 2 /46 – 48 ، وترجمته – أيضا – في «إتحاف أعلام الناس 4 / 306 – 308 .

(37) «النسمات الندية» لمحمد بن علي دنية ، المطبعة الاقتصادية بالرباط 1355 هـ : ص 16 خلال ترجمته .

(38) مطابع الأطلس بالرباط 1986 : ص 203 .

1316 / 1898 ، في «السمات الندية»(39) عند ترجمته : «وكان يذهب صباح الجمعة للزاوية المختارية بقصد إرشاد السادات المختاريين طريقته».

13 - **الدباغ :** عبد الخالق بن أحمد المراكشي ، تاريخ وفاته غير مذكور ، وكان – حسب بن ابراهيم(40) – من أفراد الطريقة المختارية بمراكش ، فقيها مدرسا نبيلا.

14 - **ابن عمرو :** المكي بن الهاشمي بن محمد التهامي الأوسي الأندلسي ثم الرباطي(41) ، ت 1301 / 1883 .

(39) ص 34 .

(40) «الاعلام» 8 / 53 ، وفي ترجمته إشارة لتأسيس الزاوية المختارية بمراكش .

(41) «المجد الطارف والتالد» : المخطوط السابق الذكر .

توضيح

ترد إشارات كالتالي :

خ ، ع ، د : حرف الدال بالخزانة العامة بالرباط .
خ ، ع ، ك : حرف الكاف بالخزانة العامة بالرباط .
خ ، ع ، ج : حرف الجيم بالخزانة العامة بالرباط .
م ، ت : المكتبة العامة بتطوان .
خ ، س : الخزانة الحسنية بالرباط .

ملحق 1

جملة من المؤلفات الكنتية وكلها مخطوطة

مؤلفات الشيخ المختار الكبير

1 – الأجوبة المهمة لمن له بأمر دينة همة — خـ ، عـ ، د 1429 .
خـ ، عـ ، ك 2541 .

2 – أذكار متنوعة — خـ ، عـ ، د 253 : ضمن مجموع .
خـ ، س 1053 ، 1130 : ضمن مجموع .

3 – البرد الموشي في قطع المطامع والرشا — خـ ، س 824 .

4 – التذييل الجليل العادم للمثيل — خـ ، س 1736 .

5 – جذوة الأنوار في الذب عن أولياء لله الأخيار — خـ ، عـ ، ك 2579 .

6 – الجرعة الصافية والنفحة الكافية — خـ ، عـ ، د 360 .
خـ ، عـ ، ك 2578 .

7 – الحجة الباهرة : «في تفسير البسملة» — خـ ، عـ ، د 3456 .

8 – فتح الودود في شرح المقصور والممدود لابن مالك
خـ ، عـ ، د 2940 .
خـ ، عـ ، ك ، 2572 .
خـ ، س 1975
8378 ، 11415 ، 12192 .

9 – فتح الوهاب في بيان ألفاظ هداية الطلاب المحتوي على معاني الحديث والكتاب
خـ ، عـ ، د ، 372 : السفر 3 .

10 – كشف النقاب عن أسراره فاتحة الكتاب
خـ ، عـ ، د 343

11 – الكوكب الوقاد في ذكر فضل المشائخ وحقائق الأوراد
خـ ، عـ ، د 1661 ، 2695
3389 ، 3827
خـ ، س 6099 ، 8328 ،
9942 ، 12514

12 – لطائف القدسي في فضل ءاية الكرسي خـ ، س 5493

13 – المختصر الجامع لما تدعو إليه الحاجة من الحر والعبد والمرأة والصبي
خـ ، عـ ، ك 935 : ضمن مجموع

14 – نزهة الراوي وبغية الحاوي
خـ ، عـ ، ك 1327 ، 1517 .
خـ ، س 92 – 412 ، 1429 ،
2513 ،

15 – نضار الذهب من كل فن منتخب
خـ ، س 799 11

16 – نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب
خـ ، س 8427 ، 8439

17 – شرح القصيدة الفيضية
خـ ، س 7357

مؤلفات الشيخ محمد بن المختار

18 – أجوبة فقهية
خـ ، عـ ، د 1855 : ضمن مجموع

19 – أوثق عري الاعتصام	خـ ، عـ ، د 1855 : ضمن مجموع
20 – جنة المريد دون المريد	خـ ، عـ ، د 1038 : ضمن مجموع خـ ، عـ ، ك 931 : ضمن مجموع مـ ، ت 247 : خـ ، س 610 ، 3431 .
21 – رسالة إلى الأمير أحمد الفلاني أمير ماسنة .	فهرس المخطوطات العربية في مركز أحمد بابا التنبكتي في مالي : رقم 186
22 – رسالة في إسم الله الأعظم	خـ ، عـ ، د 2000 : ضمن مجموع .
23 – رسالة في نصح بعض الولاة	مـ . ت 455 / 4 .
24 – الروض الخصيب بشرح نفح الطيب	خـ ، عـ ، د 730 : جزءان . خـ ، س 4636 ، 11796 12283 ، خزانة القرويين 1621 .
25 – الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالدة والوالد	خـ ، عـ ، ك 2294 . خـ ، عـ ، جـ 14 خـ ، س 690 . 1836 : قطعة منها . 4406 : مبتورة الأول .
26 – النبذة الضافية	خـ ، عـ ، ك 1069 / 4
27 – الفتوحات اللدنية بشرح التصلية الناصرية	خـ ، عـ ، د 1855 : ضمن مجموع
28 – الفوائد النورانية : في إسم الله الأعظم	خـ ، عـ ، د 209 ضمن مجموع
29 – وصيةبالتقوى	خـ ، عـ ، د 2254 : ضمن مجموع

الشيخ المختار الحفيد

30 – رسالة إلى السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام — خـ ، س 2114
خـ ، س 11،999

الشيخ أحمد البكاي

31 – رسالة إلى أهل مراكش وجوابهم له مخطوطات مركز أحمد بابا في مالي : رقم 811

32 – رسالة إلى أهل المغرب عموما وخصوصا : مصورة خاصة

33 – فتح القدوس في الرد على أبي عبد الله محمد أكنسوس — خـ ، عـ ، ك : 2455

34 – قصائد في المديح والرثاء ، في الخزانة العلمية الصبيحية : 800

ملحقات

35 – قصائد في مدح الشيخ المختار الكبير — خـ ، عـ ، ك 1554 ضمن مجموع

36 – شرح نفح الطيب السابق الذكر ، الشارح : عبد السلام بن محمد بن أبي يعزى اليعقوبي الفاسي ، ت 1264 / 1848 — خـ ، عـ ، ك 2220 .
خـ ، س ، 2814 ، 5728

ملحق 2

«الرسالة العجالة ، الرائقة في العمالة»
خطاب من الشيخ المختار الكنتي الحفيد ،
إلى السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام

الحمد لله الذي أعز وأذل ، وأولى فأجزل ، وولى وعزل ، وهدى وأضل ، ونصر وخذل ، وحكم فعدل ، وأنعم فأفضل ، وأتم فأكمل ، إذ بين وأنزل ، وحكم وفصل ، فأحقّ وأبطل ، وحرم وحلّل ، ونبّأ فأرسل ، وشرع ويسر وسهل ، فأقبل من أقبل فسعد ، وأدبر من أدبر فنكد ، وتنكل وبعد وقتل ، سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا .

نحمده ونقدسه ونكبره تكبيرا ، فهو الدائم الباقي لا إلى حد ، الواجد الموجود الغني عن كل أحد ، المفتقر إليه كل أحد ، الأحد الصمد ، الذي لم يلد و لم يولد ، و لم يكن له كفؤا أحد ، المنفرد في الملك والملكوت ، بالقهر والجبروت ، والكبرياء والعظموت ، الحي حياة كاملة ، القيوم قيومية شاملة .

وصلواته وتسليمه تشريفه وتكريمه ، وتمجيده وتعظيمه ، على خيرته من خلقه ومصطفاه ، وحبيبه من صفوته ومجتباه ، سيد الأولين والآخرين ، المنبأ وءادم

منجدل في الطين ، المحب المحبوب المجبور ، المحمد المؤيد المنصور . وعلى ءاله وصحبه الأدلة البدور ، وصحابته الأجلة الصدور ، وعلى التابعين لهم بإحسان ، إلى يوم الدين بالفلاح والخسران .

هذا وأنهي بالسلام التام ، الخالص العام ، وما يليق بالمقام ، من التحية والاكرام ، والتبجيل والاحترام ، والاجلال والاعظام ، والرضوان والانعام ، والاحسان والاتمام ، والحفظ والرعاية ، والصون والعناية ، والغنية والكفاية، والنصر والتأييد ، والظفر والتسديد ، والبركة الصافية ، والرحمة الشاملة الغير القالصة الأفلة :

إلى نخبة الأخيار ، وخلاصة خاصة الأحرار ، سلسلة السادات الأبرار ، وخاتمة القادات ذوي الأختار والأقدار ، منبع الفضل والجود ، وفرع سبب أصل الوجود ، من ثبت أصل شجرته وفرعها في السماء ، وطاب ثمرها ودنت قطوفها للاجتناء ، فكان أعرقها عرقاً ، وأرحبها عذقا ،الفارع البارع ، الورع البر المتواضع ، الساعي في الخيرات المسارع ، الجهبذ المجاهد أعداء الدين ، حامي بيضة الاسلام عن أعدائه المعتدين ، إمام الأمة القائم بكل الأمة ، الباقعة السامي ، يتيمة الخلف ، الخليفة المستخلف ، الذي أنشد فيه الحال .

أتتـــه الخلافـــة منقـــادة إليـــــه تجرر أذيـــــالها
فلــم تك تصلــح إلا لـــه ولم يك يصلـــــح إلا لها

الامام الحق ، الحاكم بالحق ، وظل الله في أرضه لجميع الخلق ، أمير المومنين سيدنا ومولانا عبد الرحمان ، بن أمير المومنين سيدنا ومولانا هشام ، بن أمير المومنين سيدنا ومولانا محمد ، بن أمير المومنين سيدنا ومولانا عبد الله ، بن أمير المومنين سيدنا ومولانا إسماعيل ، بن سيدنا ومولانا علي الحسني .

وبعد : سيدي نضر الله أيام دولتك ، ونصر أعلام صولتك ، وأعلى في بروج السعادة مقامك ، وأطال في عافية من ذلك المقام عيشك ومُقامك ، تؤدى بالعدل والاحسان شكر ما فيه أولاك وأقامك ، وتثبت على متن سنن الاقامة والاستقامة أقدامك ، وأجرى بعصمتك من الأوهام في كل أحوالك وأقوالك وأفعالك على لوح توقيع أمره إقدامك ، وسخر لك رياح النصر والرعب تسير خلفك وأمامك .

فليكن في كريم علمك أنا – ولله الحمد وله المنة لعامة المسلمين وخاصتهم من حب خير الخاصة العاجلة والآجلة – لا نالوا منهم رئيسا ولا مرءوساً ولا سائساً ولا مسوساً : نصحاً ، سيما أولوا أمر المسلمين الذين بهم يزع أهل النداء ، ويقرع

بهم أنف المشاقين الأعداء ، سيما من كان من أهل البيت – المطهرين من الرجس تطهيرا – جامعا للنسبتين متمسكاً بالسببين مجددا للدين ، مرشدا للمسترشدين ، عدلاً مرضياً قبل أن يرضي ، قد رفض الأمارة بعدما تشبثت بأذياله رفضاً ، وأعرض عنها بعدما عرّضت له وعرضت عليه عرضا ، فلم تزل ءاخذة بحقوه عائذة به إلى أن رعاها فرضاً ، وهي كما قيل : من تتبع الرياسة أعيته ، ومن فر تبعته ، فدخلها بالله ولله ، وتوكل على الله ، فمد بالنصر من الله ، فقطع ووصل في الله ، وأخذ بالله وأعطى لله ، وعدل في بلاد الله ، ورفق بعباد الله ، فهو – لعمري – الأحرى الأحق ، والأولى الأخلق ، أن تخلص له المودة ، وتوظف بنصره واستقامة أمره – أناء الليل وأطراف النهار – الدعوات المرجوة ، وتبذل له النصائح ، وتهدي له التحايا السالية ، وأن يفدي بالنفوس ونفائس الضنائن المخبئات .

هذا : وقد قدم علينا من ناحيتكم الميمونة الفاضل الأديب الفائق ، الأريب السالك الناسك الصادق الذائق ، سيدي بابا أحمد بن عبد الرحمان ، في وفده المبارك غير خزابا ولا ندامى ، فاثنوا عليك بما أنت أهله . ونشروا من فضائلك ماطوى البين ، وفصلوا وأذاعوا من تقريبك العلماء ، واحتفالك بالعلم وصرفك عنان الهمة إليه ، وإحياء السنة ، وإماتتك البدعة ، ولين جانبك ، وخوفك وتواضعك وعفوك وحلمك وصبرك ووقارك وتوكلك وزهدك وورعك وكرمك ما هو الغاية القصوى المنتقاة ، وقرة العين المبتغاة ، والدليل القاطع على أحقيتك بالامامة الحقيقية ، وأخلقيتك بالخلافة الحقية اليقينية .

فهيج ذلك من دواعي القديم ، وحرك من جماد الطبع الرميم ، ما نفخ في رحم حياته من روحه ، ثم نفخ فيه أخرى فقام ينظر من ضريحه ، فتكلمت القريحة في مهدها ، قبل بلوغ أشدها ، وتكلفت فوق وسعها ، ولم ترجع على ضلعها ، إذ أقدمت على التقدم بين يدي مثلك من ذوي الفهم ، والتقديم بالأمر في الدين والعلم ، وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت وإليه متاب ، فإن أصب ما رمته فرمية من غير رام ، والسكوت حمية ، أولا : فمن محله كان الخطا ، وحظ العجيز نقل الخطا ، وأهل الفضل أستار للعوارت ، وقيل للعثرات ، وأقبال للمعذرات ، وما كان من خطإ فأحسنوا مخرجه ، وما كان من صواب فالله ألهمهم وأخرجه .

ثم لتعلم أيها المشرع المورود ، والظل الممدود ، أن ما يجب لك على عامة الأمة وخاصتها من الحق والطاعات والنصح ، يجب مثله عليك لعامتها وخاصتها من النصح والارشاد والرفق ، بدليل قوله ﷺ : اللهم من وليته من أمر أمتي شيئا فشق عليها

فأشفق – اللهم – عليه ، ومن وليته من أمر أمتي شيئا فرفق بهم فارفق – اللهم – به ، أو كما قال .

وأن تحسن كما أحسن الله إليك ، وأن تنعم على من تصله يداك كما أنعم الله عليك ، وقوله لعلي – رضي الله عنه – لأن يهدي الله بك رجلا خير لك مما طلعت عليه الشمس من صفراء وبيضاء ، أو كما قال . وقوله – على ما ورد في الصحيحين – الدين النصيحة ، قلنا لمن ؟ قال لله ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولائمة المسلمين ، وخاصتهم .

يريد – ﷺ – بالنصيحة لله : الايمان به ، ونفي الشرك عنه ، وإخلاص الاعتقاد في الوحدانية ، ووصفه بصفات الألوهية ، وتنزيهه عن النقائض ، والقيام بطاعته ، واجتناب معصيته ، وموالات من أطاعه ، ومعادات من عصاه ، والاعتراف بنعمته ، وشكره عليها ، والاخلاص له في جميع الأمور ، فقد روى أحمد بن حنبل عنه ﷺ قال الله – عز وجل – أحب ما تعبد به عبد النصح لي ، وحقيقة هذه الاضافة راجعة إلى العبد في نصحه نفسه ، فإنه – سبحانه – غني عن نصح الناصحين ، وعن جميع العالمين .

والنصح لكتابة – أي كتبه المنزلة – بالايمان بها ، وأنها من عنده وتنزيله ، وتميز القراءان من بينها بأنه لا يشبهه شيء من كلام المخلوقين ، ولا يقدر أحد على الاتيان بمثل أقصر سورة ، وتلاوته بخشوع ، وإقامة حروفه في التلاوة ، والتصديق بما فيه ، وتفهم علومه ، وإكرامه ، والاعتناء بمواعظه ، والتفكر في عجائبه ، والعمل بمحكمه ، والتسليم لمشتبهه ، والبحث عن ناسخة ومنسوخه ، وعمومه وخصوصه ، وسائر وجوهه ، ونشر علومه ، والدعاء إليه .

والنصيحة لرسوله بالتصديق برسالته ، والايمان بما جاء به ، والتزام طاعته في أمره ونهيه ، ونصرته حيا وميتا ، وإعظام حقه ، وإحياء سنته ، والتفقة فيها ، والذب عنها ، وإجلال أهلها لانتسابهم إليها ، والتخلق بأخلاقه ، والتأدب بآدابه ، ومحبة أهل بيته وصحبه .

والنصيحة لأيمة المسلمين من كل قائم بأمور المسلمين . والامامة أعم من الخلافة ، إذ كل خليفة إمام ، ولا ينعكس ، إذ هي على أربعة أوجه : إمامة وحي وهي النبوءة ، وإمامة وراثة وهي العلم ، وإمامة عبادة وهي إمامة الصلاة ، وإمامة مصلحة وهي الخلافة ، فنصيحتهم بمعاونتهم على الحق ، وأمرهم به ، وتذكيرهم به بلطف ورفق ، وإعلامهم بما غفلوا عنه من أمور المسلمين وحقوقهم ، والدعاء

بالصلاح لهم ، وترك الخروج عليهم ، والجهاد ، وأداء الزكاة إليهم ، وامتثال أمرهم .

ونصيحة العلماء : بقبول ما رووه ، وتقليدهم في الأحكام ، ونشر مناقبهم ، وحسن الظن بهم ، وليس المراد بهم من تزيا بزيهم وادعى العلم وأكل الدنيا بالدين ، فإن نصحهم ونصح عامة المسلمين : أن ينسلخوا عما هم عليه ، قال سهل بن عبد الله : لا يزال الناس بخير ما عظموا السلطان والعلماء ، فإذا عظموا هاذين أصلح الله دنياهم وأخراهم ، وإذا استخفوا بهاذين أفسد الله دنياهم وأخراهم .

والنصح لعامتهم : بإرشادهم أخراهم ودنياهم ، وكف الأذى عنهم ، وتعليمهم ما جهلوا ، وستر عورتهم ، وتأمين روعتهم ، وسد خلتهم ، ومحبته لهم ما يحب لنفسه ، وعدم غشهم .

وبدأ - ﷺ - بالله ، لأن الدين له حقيقة ، وثنى بكتابة الصادع ببيان أحكامه ، المعجز ببديع نظامه ، وثلث برسوله الهادي إلى دينه ، الموقف على أحكامه ، المفصل جميع شرائعه ، وربع بأولي الأمر الذين هم خلفاء الأنبياء ، القائمون بسنتهم ، وخمس بالتعميم ، وإنما خص أهل الاسلام بالنصح لأنهم أقرب إلى الاجابة من أهل الذمة ، وإلا فنحن ننصح أهل الذمة بالارشاد للايمان ، و من باب التغليب ، لشرفهم على أهل الذمة .

وإياك سيدي والشبع من العلم والزهد فيه ، ولو بلغت فيه كل مبلغ ، واجتمع عندك من العلماء ما فيه مقنع ، ولا تقصر في نشره وتجديده ، والحمل على تعلمه وتعليمه ، والحض على العمل بمقتضياته في تحليله وتحريمه ، ومكروهاته ومندوباته ، كما كان حياة مستخلفك فريد الزمان ، وعين الأعيان ، مولانا سليمان ، رحمه الله وأسكنه فسيح جنته ، مما شاع وذاع في أقطار البلاد النازحة ، وطار شعاعه على لسان كل سارحة ورائحة ، حتى أغنى الخبر فيه عن العيان : من اعتنائه بنشر العلم وتعليمه ، إذ كان - فيما بلغنا - يامر بجمع اليتامى والسؤال فيجري عليهم الأرزاق ، ثم يدفعهم إلى من يعلمهم ، ويرتب لهم على حفظ القراءان راتبا ، ثم على إتقان العقائد ، ثم على قراءة مختصر خليل ، ثم على خلاصة ابن مالك ، ثم على التسهيل له ، ثم على فريدة الحافظ السيوطي ، ثم على التنقيح ، ثم على المفتاح وتلخيصه ، ثم على جمع الجوامع ، ثم على الصِّحاح ، ثم على تفسير القراءان : كل مرتب يزيد على ما دونه : من العشر إلى المئات إلى الألف ، فاعتنى الناس بالعلم وتعلمه وتعليمه أيامه ، عنايتهم بالتجر أيام من قبل ، فكثر العلم وانتشر، ونمى علمه

واشتهر ، إلى غير ذلك من جمائل أسراره ومحاسن ءاثاره التي أنتم أحوط بها علما ، وأبصر بها عينا ، لمشاهدتكم كل ما ينقل إلينا بعضه . وقد وافت ولايته الميمونة إقليم الغرب ، وقد كاد يجتث منه أصل العلم ، وينتقض منه أس العدل .

وما استخلفك – رضي الله عنه وأرضاه – إلا نصحا منه للأمة وشفقة عليها ، وعلما منه بما فيك ، وكفى بذلك شهيدا على أفضليتك ونصيحتك على النحو الذي قدمنا ، إذ لو كان مثيرا لهواه وحظ نفسه لأثر بها من هو أقرب إليه منك ، وغلب على الظن حبه له دونك ، وهو – أيضا – أدل دليلا وأقوى حجة على حقية خلافتك ، متع الله الاسلام بطول حياتك ، ورغم بسيف العز أنوف أعداء الدين وأعدائك .

ثم لتعلم أن مزية العلم هي المنزلة العظمى ، والمرتبة الشمّا ، الكفيلة بالرشد والفلاح ، والهدى والصلاح ، والناس كلهم محتاجون إلى العلم ، وهو زينه لهم ووسيلة ، وأشد الناس احتياجا إليه وأكملهم زينة به الأمراء ، لكونهم أكثر الناس عيالا وأتباعا وحشما ، والناس كلهم مستمدون من أخلاقهم السنية ، وسيرهم العالية ، مفتقرون إليهم في الأحكام ، وقطع التشاجر والخصام ، فهم أحوج الخلق إلى معرفة العلوم وجمع الحكم ، وشخص بلا علم كبلاد بلا أهل .

فأفضل ما في الأمير خصوصا وفي الناس عموما : التحلي بالعلم وصحبته ، والشوق إلى سماعه ، والتعظيم لحملته ، وإن كان الأمير خاليا من العلم ركب هواه وأضر برعيته ، كالدابة بلا رسن ، تمر في غير الطريق ، وقد تتلف ما تمر عليه ، وليس أحد من أهل علم الدرجات السنية والمراتب العلية : أحوج إلى مجالسة العلماء وصحبة الفقهاء ودَرَسَة كتب العلم والحكم ، ومطالعة دواوين العلماء وسير الحكماء : من الأمراء والسلاطين ، وذلك لوجهين أحدهما :أنهم نصبوا لممارسة أخلاق الناس وفصل الخصومات وقضية المحاكات ، وكل ذلك يحتاج إلى علم بارع ونظر ثاقب وبصيرة قوية ودراسة طويلة ، فإذا لم يعدوا لهذه الأمور عدتها فكيف يكون حالهم .

الثاني : أن ما عداهم من الناس لا يعدمون من يعارضهم وينكر عليهم ويذكرهم بمساويهم ويخالفهم ، فيكون ذلك معينا لهم على رياضة أنفسهم ، وحاملا لهم على مراشدهم ، من مراجعة الحق ، وتحقيق ما أخذوا من الأحكام ، ثم مناظرة الأكفياء والنظراء تنفخ عقولهم ، وتهذب نفوسهم ، بخلاف الأمراء ، فإن ارتفاع درجاتهم تقطع عنهم جميع ذلك ، إذ لا يلقاهم ولا يجالسهم إلا معظم لهم ، مبجل لشأنهم ،

مادح لهم بما ليس فيهم ، متبع لهواهم لا متبع للعلم ، وقد قال ﷺ لا يتم إيمان أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به ، أو كما قال ﷺ ، ولا يجيبونهم إلا بقولهم صدق الأمير ، ونعم سيدي ، بارك الله في عمر سيدي ، أو قولهم نظر الأمير أوسع ، ونحو ذلك ، فلا يصح مثل هؤلاء للصحبة ولا تصلح لهم ، وعلى قدر علو المرتبة يكون قبح السقطة .

فاجعل أيه الأمير التقوى شعارك ، والعلم دثارك ، والعمل إزرارك ، والحلم حليتك ، والوقار تاجك ، والعفاف والورع منهاجك ، والصبر جندك ، والشكر مددك ، واعلم أن ليس أحد فوق أن يومر بتقوى الله ويوصى بطاعته ، ولا أحد أجل قدرا من أن يستوصى بطاعة الله ، ويتعلم أحكامه ، ويتصف بصفاته التي منها العلم الذي وصف به نفسه ، وتمدح به فقال عز وجل : وسع كرسيه السموات والأرض ، وكرسيه علمه ، وقال : وأحاط بكل شيء علما ، وإذا كان العلم فضيلة فرغبة الملوك والأشراف وذوي الأقدار والشيوخ فيه أولى وأجل ، ولذا الخطأ منهم أقبح ، والابتداء بالفضيلة فضيلة .

وبالجملة : فيما يذكر من حاجة الرعية إلى العلم ، فحاجة الأمير – وهو المستدعى إليه – أكثر ، ودواعيه إلى اكتسابه أشد ، لأن من عداه إنما يكتسبه من جهة مطالبة الشرع له في نفسه ، فيقرب عليه تحصيل ما يطالب به من ذلك ، والأمير منتصب لسياستهم وتعليمهم وتقديم أولاهم ، فهو إلى العلم أحوج ، وقد قال بعض الحكماء : كل عز لا يؤيده علم مذلة ، وكل علم لا يؤيده عقل مضلة ، وكيف يستنكف ملك أو ذو منزلة عالية عن طلب العلم وقبوله من مفيده ، وهذا موسى عليه السلام ارتحل من الشام إلى مجمع البحرين في أقصى المغرب على بحر الظلمة ، إلى لقاء الخضر ليتعلم منه ، فلما لقيه قال له هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا ، وهو نبي الله تعالى ودليله ، وهذا باب يطول تتبعه ، وقد قالوا : السلطان سوق لما ينفق مما أوتي به إليه ، فإن يكن للبر والمودة والعلم والديانة عنده نفاق تقرب إليه بها ، ووفدت عليه أربابها ، وتوجهت إليه هممهم ، وكثرت رغبة الناس في البر واكتساب العلم واقتناء الفضائل ، تقربا إلى السلطان ، وانتشر ذلك في الأفاق ، وإن لم يكن لذلك في سوقه نفاق بل نفقت اضدادها ، تقرب إليه – أيضا – بها ، وانعكس الأمر بذلك ، فشاع الفجور والجهل والدناءات في الأفاق ، وسمع زياد رجلا يذم الزمان فقال : لو كان يدري ما الزمان لاعتنقه ، إن الزمان هو السلطان ، وقال معاوية لابن الكوفي ، صف لي الزمان ، فقال له : أنت الزمان ، إن تصلح يصلح ، وإن تفسد يفسد ، والمثل السائر في كل زمان

وعلى كل لسان : الناس على دين الملك ، وقال أزدشير لابنه : يا بني إن الدين والملك إخوان لا غنى لأحدهما عن الآخر ، فالدين أسٌّ . والملك حارس ، ومن لم يكن له أس فمهدوم ، ومن لم يكن له حارس فضائع ، يابني إجعل حديثك مع أهل المراتب ، وعطيتك لأهل الجهاد ، وبشرك لأهل الدين ، وسرك لمن عناه ما عناك ، ولتكن من أهل العقل ، وكان يقول : الدين والسلطان توءمان .

وأوصيك أيه الامام الأمين ، والخليفة الميمون ، بإظهار الرغبة فيما يرد عليك من النصائح والوصايا ممن لا تستغشه ، فذلك أدعى لأمن الناس منك في بذلهم لك ما أطلعوا عليه مما يحسن لك الأخذ به أو بعكسه ، فإن ورد عليك ما استحسنت أخذت به وعملت بمقتضاه ، وإن كان غير ذلك نحيته عنك ولم يضرك ، وشكرت لمهديه إليك مقصده ، وقد حكى أن عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – كان يقول : رحم الله رجلا أهدي إلي عيوبي ، ونصح خالد بن سعيد بن العاصي برأيه أمير المومنين أبا بكر – رضي الله عنه حين أراد أن يودعه سائرا إلى الشام ، فقال : يا أبا بكر إن الله – تبارك وتعالى – قد أكرمنا وإياك والمسلمين عامة بهذا الدين ، فأحق من أقام السنة وأمات البدعة وعدل في السيرة : الوالي على الرعية ، وكل امريء من أهل هذا الدين محقوق بالاحسان ، ومعدلة الوالي أعم نفعا ، فاتق الله يا أبا بكر فيمن أولاك أمره ، وارحم الأرملة واليتيم ، وأعن الضعيف والمظلوم ، ولا يكن رجل من المسلمين إذا رضيت عنه آثر عند بالحق منه إذا اسخطت عليه ، ولا تغضب ما قدرت على ذلك ، فإن الغضب يجر الجور ، ولا تحقد على مسلم وأنت تستطيع ، فإن حقدك على المسلم يجعله لك عدوا ، وإن اطلع على ذلك منك عاداك ، وإن عادى الوالي الرعية وعادت الرعية الوالي فإن ذلك قمن أن يكون إلى هلاكهم داعيا ، ولين للمحسنين ، وشد على المريبين ، ولا تأخذك في الله لومة لائم ، ثم قال : هات يدك يا أبا بكر ، فإني لا أدري أنلتقي في الدنيا معك أم لا ، فإن قضى الله لنا في الدنيا التقاء فنسئل الله عفوه وغفرانه ، وإن كانت الفرقة التي ليس بعدها التقاء ، فعرفنا الله وإياك وجه النبي – ﷺ – في جنة النعيم ، فأخذ أبو بكر يده فبكى ، وبكى خالد ، وبكى المسلمون ، فانظر – رحمك الله وأيدك ، وإلى ما فيه العدل والصلاح سددك – إلى تواضع هذين الصديقين وإنصافهما ، وتحليهما بالطمأنينة واتصافهما ، وبتصفح سيرتهما يلوح لك أن الكمال والفضل في غير الاستغناء عن علوم الرجال وعقولهم وآرائهم وآدابهم .

وعليك – كشف الله عن بصائرنا وبصيرتك حجب كثائف الطباع ، وجعلنا

وإياك ممن وفق لحسن الأتباع - بخفة الحجاب دون رعيتك ، فإنه لم ينقل إلينا واش ولا حاسد ولا عام ولا خاص قديما وحادثا من سيرتكم من عهد أمير المومنين مولانا سليمان إلى الآن ما ينقم حاسد ، أو ينقد بصير ناقد ، شدة الحجاب ، ودفع البواب الشكاة المظلومين قبل انتهاء شكايتهم . لأخذهم على ذلك الرشا من الظلام الغصاب ، ومكث المظلوم الشهر والشهرين على الأبواب ، لا يستطيع إبلاغ حاجته ، ولا يجد من يبلغها عنه ، حتى ينصرف بغيرها أو يبلغها بعد جهد جهيد وعلاج شديد ، وقد يحتبس أكثرهم على رفع الشكاية ، لعلمه بطول تردده على الأبواب ، وشدة من العمال وتمالئهم وترشيهم على عدم ايصال الشكايات ، فيضيع بذلك كثير من الناس وحقوقهم ، فعمل الحيلة في تخفيف الحجاب وتخويف الحجاب وزجرهم عن دفع ذي الحاجة المحوجة والشكايات ، فقد قيل لا شيء أضيع للملكة وأهلك للرعية من شدة الحجاب ، وقد أكثر الشيخ سيدي محمد بن عبد الكريم المغيلي في وصيته للسلطان الحاج محمد السيكي : أصل كل بلية ، احتجاب السلطان عن الرعية ، وقد قيل : إذا سهل الحجاب أجمعت الرعية عن الظلم ، وإذا اشتد الحجاب هجمت على الظلم ، وقال ميمون بن مهران : كنت عند عمر بن عبد العزيز فقال لحاجبه من بالباب ؟ فقال رجل أناخ الآن وهو يزعم أنه ابن بلال مؤذن رسول الله ﷺ فأذن له ، فلما دخل عليه قال : حدثني أبي قال : سمعت رسول الله ﷺ - يقول : من ولى شيئا من أمور المسلمين ثم حجبهم عنه حجبه الله يوم القيامة ، فقال عمر لحاجبه الزم بيتك ، فما ريىء على بابه - بعد ذلك - حاجب ، وكان خالد بن عبد الله القسري يقول لحاجبه : إذا أخذت مجلسي فلا تحجب عني أحدا ، فإن الوالي لا يحتجب إلا لثلاث : غي يكره أن يطلع عليه أحد ، وريب يخاف منها أن تظهر عليه ، وبخل يكره معه أن يسئل شيئا ، وقال عمرو بن مرة الجهني لمعاوية : سمعت رسول الله ﷺ - يقول : ما من أمير يغلق بابه دون ذي الحاجة والخلة والمسئلة ، إلا أغلق الله أبواب السماوات دون حاجته .

وقد أورد شيخنا الوالد في شرحه «الروض الخصيب على نفح الطيب» اختلافا في مشروعية الحجاب للحاكم ، فقال : قال قوم ينبغي له أن لا يتخذ حاجبا ، وذهب آخرون إلى جوازه ، وقال آخرون : بل يستحب ، وقد قال : ولو قيل بوجوبه لم يبعد ، لفساد الأمة وظهور الشر وعدم انقياد العامة إلى الحق ، فيكون الحجاب سببا لترتيب الخصوم ، ومنع المستطيل ، ودفع الشرير ، انتهى .

وانظر - نظر الله إلينا وإليك بعين عصمته ، ووفقنا جميعا بفضله ورحمته - إلى

ما في الاحتجاب من الآفات والفوائد ، فما رجح عندك فاعتمد عليه ، فإذا أمنت الفتنة و لم تخف مفسدة أعظم ، فأولى لك وأولى ، ثم أولى لك وأولى ، ثم أولى لك وأولى : عدمه ولو وقتا معلوما من النهار ، أو يوما مسمى من الأسبوع يرتقبه ذو الحاجة والخلة ، فيجتمعون لميقات ذلك الوقت المعلوم أو اليوم المسمى ، فلا تبقى حاجة ألا قضيت ، ولا خلة إلا سدت ، ولا مظلمة إلا ردت ، وإن لم تومن الغائلة فسد ذريعة الفتنة وغلق بابها مقدم ، لأن درء المفاسد أولى من جلب المصالح ، فيكون الاحتجاب – حينئذ – غير مذموم ولا منقوم ، مع أنه لا يمتنع اتخاذه لمصلحة أو لدفع مفسدة ، من كون القهارمة والحجاب أمناء نصحاء أولي ديانة ومروءة ، ينصرون المظلوم وينجدونه ، لا تأخذهم في الله لومة لائم ، ولا تستميلهم رشى ظالم ، وإن تعذر وجود من هذه حالته استفرغ المجهود في استنتاج سياسة تكون موافقة لسنته يرتفق بها هذا الفتى ، فالخير كله في الأتباع ، والشر كله في الابتداع ، فقد كتب إلى عمر بن عبد العزيز بعض عماله يعلمه بما وجده في الموصل من كثرة السرقة والنقب ، ويسأله أن يأخذ الناس بالظنة ، ويضربهم على التهمة ، أو يأخذهم بالبينة وما جرت عليه السنة ؟ فكتب إليه : أن خذهم بالبينات وما جرت عليه السنة ، فإن لم تصلحهم السنة فلا أصلحهم الله ، ففعل العامل ذلك ، فما خرج من الموصل حتى كانت من أصلح البلاد وأقلها سرقة ونقبا .

ومن أعظم آفات شدة الحجاب ما وقع من دخول الأفرنج : دمره الله من النصارى – مصر القاهرة ، واستيلائه على نواحيها والدرب كله على مدة ثلاثة أعوام أو أربعة ، والسلطان سليم العثماني لا يشعر بذلك ، ووزراؤه وعماله يخفون ذلك عنه ، حتى احتال رجل من المغاربة يدعى الجزار فأعلم السلطان ففرج الله على المسلمين ، وحكايتهم معلومة مشهورة فلا نطيل بذكراها .

واعدد الولاية بلية ، ولا تعددها نعمة إلا من رحم ربك ، واعتصم بحول الله وقوته ، وتبرأ من حولك وقوتك .

واختر لجيوشك من القواد أكملهم عقيدة ، وأتمهم ديانة ، وأقواهم نصيحة ، وأشدهم على أعداء الدين شيكمة ، كسيدي محمد بن الطيب بن سيدي محمد وأشباهه ، فأسد يقود ألف قرد ، خير من قرد يقود ألف أسد .

واستعمل الحلم فهو زينة الأمراء وخلق الأنبياء ، وقد يقال : العز والغلبة بالحلم ، وفي التورية لا ينبغي للامام أن يكون جائرا ومن عنده يتلمس العدل ،

ولا العالم أن يكون سافها ومن عنده يقتبس العلم ، لأن العز والغلبة بالحلم ، وقال سيدنا عمر رضي الله عنه ليت شعري حتى أشفي غليلي : أحين أقدر فيقال لي لو عفوت ، أم حين أعجز فيقال لي لو صبرت ، وقال أيضا رضي الله عنه : لا يصلح الوالي إلا بأربعة خصال : إن نقصت واحدة لم يفلح له أمره : قوة على جمع المال من أبواب حله ، ووضعه في محله ، وشدة لا جبروت فيها ، ولسان لا وهن فيه ، والله تعالى يوفقنا وإياكم لما يحب ويرضي ، ويقضي لنا ولكم بخير القضا .
ثم لتعلم سيدي أن هذا الوفد المبارك قد أبلغونا من جملة ما أبلغونا عنك من الفضائل والمحامد شدة تشوفك وتعطشك إلى تآليف الشيخين الوالد والجد ، وقد قدمت بين يدي نجوى كتابي إليك شرح الشيخ الوالد المدعو «بالروض الخصيب ، على نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب» للشيخ الجد الكبير ، هدية صغيرة الجرم ، كثيرة العلم ، قليلة العدد ، كثيرة المدد ، نافعة مفيدة ، نسئل الله – تعالى – أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم ، عملا بقول رسول الله ﷺ : تهادوا تحابوا وتذهب الشحناء ، وفي الحديث : الهدية تجلب المودة إلى القلب والسمع والبصر ، وقال بعضهم : يفرح بالهدية خمسة : المهدي إذا وفق للفضل ، والمهدي إليه إذا كان أهلا لذلك ، والحمال إذا كان توسط فيها ، والملكان الكاتبان لحسناتهما ، ولو كان عندنا أنفس من الكتب لأهديناه إلى الحضرة المشرفة ، فالقليل منها كثير ، والصغير منها كبير .

وإن تفضل سيدنا بأن يبعث إلينا شرح الكلاعي ، وشرح الامام ابن حجر على البخاري بتمامه ، فقد أنعم وتمم ، ومن منة هو لها أهل ، لا ينقضي شكرها ، ولا ينفذ ذخرها ، إذ لا يوجدان إلا عند مثلك ، ولا يسمح بهما غيرك ، وهو من باب إيصال الخير إلى الغير ، المعدود من أفضل أعمال البر ، وإن جعلتهما في يد حامل الكتاب إليك فكأنما جعلتهما في يدي .

وأوصيك – سيدنا – بتلامذتنا المنتسبين إلينا ، الكائنين تحت كنف ولايتك – خيرا وإحسانا ، فالله يجازيك من خير خليفة وإمام ، خير ما يجازي وليا عن رعيته .

والسلام على من بالحضرة الشريفة عموماً ، وخصوصا العلماء ورؤساء الأجناد ، وأوصيهم بتقوى الله وطاعة أميرهم ونصحه وتذكيره . وإعانته بالأنفس والأموال ، والرغبة في الجهاد ، وإخلاص النية فيه بقصد أن تكون كلمة الله هي العليا ، والثقة بوعد الله عليه ، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن النبي

ﷺ – أمر بالسمع و الطاعة لولي الأمر – ومناصحته ومحبته والدعاء له ، وعن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ أنه قال : من أطاعني فقد أطاع الله ، ومن عصاني فقد عصى الله ، ومن أطاع أميرا فقد أطاعني ، ومن عصى أميرا فقد عصاني ، وسئل كعب الأحبار عن السلطان فقال : ظل الله في أرضه ، من نصحه اهتدى ، ومن غشه ضل ، وعن حذيفة : لا تسب السلطان فإنه ظل الله في الأرض ، به يقوم الحق ويظهر الدين ، وبه يرفع الله الظلم ويهلك الفاسقين ، عصمنا الله وإياكم من الزلل ، ووفقنا وإياكم لصالح العمل ، إنه على كل شيء قدير ، وبالاجابة جدير .

من مخطوطات خ ، س 2114 .

خـ ، س 11999

ملحق 3

وثيقة وقف الزاوية الكتنية بمكناس

الحمد لله الذي أرشد العقول إلى توحيده وهداها ، وجعل التوحيد سببا للنجاة في سفينة السلامة وقال الموحد بسم الله مجراها ومرساها ، فاتصلت بمحبوبها وظفرت بمطلوبها ومناها ، سارت في بحار مشاهدته فاستغرقت في لذة منادمته عند ما ناداها ، أسمعها خطابه فطابت وأجابت لما دعاها ، فسبحانه سبحانه رفع السماء بغير عمد وبحسن الاتقان بناها ، وبسط الأرض على الماء بحكمته ودحاها ، فرض الصلوات وكلف بها خلقه لدى الميقات ، عينا وكفاية وكذا سنة ومندوبات ، وخص بمجموع الخمس هذه الأمة المشرفة تمجيدا وتشريفا بالعلامات ، وجعل الكعبة البيت الحرام أشرف البقع ووجهة لمن أراد إقامتها وحباها ، وأرضى باستقبالها نبيه عليه السلام بقوله : «قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها» ، فبنت ملائكة الرحمان ، بيت الله الحرام المؤسس على الرحمة والأمان ، أعده المولى لأنبيائه وخواصه قبلة وتأمينا ، «إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مبارك وهدى للعالمين فيه آيات بينات : مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا» ، وعمّر سليمان – عليه السلام – بيت المقدس الأقصا الذي بارك الله حوله ، وعرفت كل أمة فضله ، موضع المعراج والأسرا ، وكفى بذا شرفا وفخرا ، وبنى نبيا – عليه

السلام – مسجده النبوي ذي الروضة المقدسة ، ومسجده بقباء الذي بالتقوى أسسه ، «لمسجده أسس على التقوى من أول يوم أحق أن نقوم فيه».

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة نتخذها عدة ليوم العرض على الملك الديان ، ونجد بركتها عند الحوض والميزان ، ونشهد أن سيدنا ونبينا ومولانا محمدا عبده ورسوله المبعوث بالحكمة المؤسسة على قواعد التقوى والايمان ، وعلى آله وأصحابه ما تسارع الصفوة إلى إقامة الصلوات ، وتسلوا بأدائها جماعة عن الشهوات ، ورجحوا حلاوة تأسيس المساجد لاقامتها عن سائر اللذات ، سبحان من خص أولياءه بمعرفته ، وحشى أفئدتهم بطاعته ، صفحات وجوههم تنبئك عن أنوار قلوبهم ، فبنور جلاله يعرفون ، وإلى لقاء مولاهم يتأهبون ، إذا ترنموا بكلام الحبيب رأيتهم صحاة سكارى يغيبون ويحضرون ، وإذا هام شوقهم هاموا فلو رأيت أحدهم لقلت إنه مجنون ، وإنما هو بحب مولاه مفتون ، فلا أخلى الله الأرض منهم ولا برح بيننا الصالحون ، ولمثل هذا فليعمل العاملون.

أما بعد : فإن تأسيس المساجد من أفضل الأعمال التي تلتمس وتحتذى ، ويلوح الناظر للفوز بها ويقتدي ، لما ورد فيها من الأحاديث الصادقة ، والمقالات الرائقة ، قال عليه الصلاة والسلام : «من بنى لله مسجدا بنى الله له بيتا في الجنة» ، رواه ابن ماجه عن علي بن أبي : طالب ، وقال عليه السلام : «من بنى مسجدا يبتغي به وجه الله ، بنى الله له مثله في الجنة ، رواه الجماعة عن عثمان ، وقال : «من بنى لله مسجدا يبتغي به وجه الله بنى الله له مثله في الجنة ، رواه الجماعة عن عثمان ، وقال : من بنى لله مسجدا بنى الله له في الجنة أوسع منه» ، رواه الطبراني عن أبي أمامة ، وقال عليه السلام : «إن مما يلحق المومن من عمله وحسناته بعد موته علماً نشره ، وولدا صالحاً تركه ، ومصحفا ورثه ، ومسجدا بناه ، أو بيتا لابن السبيل بناه ، أو نهرا أجراه ، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته تلحقه من بعد موته» ، رواه ابن ماجه عن أبي هريرة ، سيما إذا انضم لذلك الخير وظائف الأوردا والأذكار ، وتفوح سناه بالتلاوة في أوقات الليل والنهار ، فيا له من محل قد حوى من المجد والجلال ، «في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها إسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال» ، فتعزز مسجد مسماه بالزاوية ، واختص بشرف هذه التسمية.

وإن الفقيه إمام الأكابر والأفاضل ، وصدر المجالس والمحافل ، وبدر الانارة لسرى القوافل ، من له المناقب الثواقب ، والمواهب السواكب ، والفوائد الفرائد ، الفقيه العالم الأحمد النطاسي ، سيدي عبد الله بن أحمد السوسي ، جمع الله له بين العلم

والعمل ، ومنحه بلوغ الغاية التي لا يقال فيها لو أن ذا كمل ، بيته أوحد البيوت الرفيعة السنية ، وله مزية الرفعة ورفعة المزية ، عمر بالحسنات آناءه ، وتتبع بالقربات آباءه ، بانيا كما بنوا ، بل زائدا على ما أتوا ، فهو حبر الأكارم ، وبحر المكارم ، وتاج الفاخر ، وحجة المفاخر.

وإنه – رعاه الله – لما ثاق بوعد الله – تعالى – المنجز ، الذي لا ينكص ولا يوجز ، فيما عند الله مما لا يفنى ، وتخلى عن عرض الدنيا ، أحضر شهيديه أمنهما الله تعالى بمنه من كل مكروه وبليا ، وأشهد أنه حبس جميع الدار الكائنة بدرب صدراته من مكناسة الزيتونة جوار دار الزموري والسوسي ، التي تملكها بالشراء من الشرفاء الأمرانيين ، مما عدا القوس الذي استثناه عليه الشرفاء المذكورون ، وجميع الخربة المتهدمة الكائنة بصدراته ، المجاورة لدار الشريف الولي الصالح ، والسر اللائح ، سيدي قدور العلمي ، ودار القائد سليمان بن المكناسي ، ودار الصديق ، وهي التي تملكها بالشراء من ورثة السيد الطيب بوعشرين ، وجميع الدار الكائنة بالدرب المذكور التي اشتراها من القائد سليمان بن علال.

حبساً تاماً ، مطلقا عاماً ، على أن تجعل الأولتان زاوية ، ويحرز ذلك محلا للأذكار والأدعية ، وتقام فيها الصلوات ، وتستمطر الرحمات ، ويتلذذ بسماع ذكر الله – تعالى – بدل الغفلات ، والمحل الثالث المذكور يوخذ منه ما يحتاج تخطيط الزاوية إليه ، ويكون سمة إقامتها عليه ، وماعدا ذلك من سائر منافعها يكون حبساً على الامام الراتب بتلك الزاوية ، القائم بذلك الوظائف صباحاً وعشية ، إعانة له على ملازمة القيام ، والتردد إليه لأداء الصلوات في سائر الأيام.

حبساً لا يبيد ، ووقفاً صحيحاً على المنهج القويم لا يحيد ، لا يتبدل عن سبيله ومنواله ، وطريقه وعنوانه ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، ومن بدل شيئا أو سعى فيه فالله حسيبه وسائله.

أراد بذلك وجه مولانا العظيم ، وثوابه الجسيم ، والله لا يضيع أجر المخلصين ، ويجعله من العمل المقبول المستبين ، ويولي المحبس من كل خير أجزله ، ومن كل صنع أجمله ، ومن كل خير أتمه وأكمله ، ويتقبل عمله بالتحقيق ، ورجاءه بالتصديق ، بمنه وفضله.

وبسبب ذلك صارت البقع المذكورة تحترم باحترام الأحباس ، وينادى عليها بأشرف الأنفاس : الأولان مسجدا يعظم ، وزاوية الذكر والمرام ، والثالث يجري عليه حكم التحبيس ، خدمة لذلك المسجد النفيس ، قابل الله الجميع بفضله ،

وأجرانا على عوائد بره ، والسلام ..

عرف قدره ، شهد به عليه بحال منصبه الأسمى ، المستغني عن التصريح بمعرفة المسمى ، وفي أواسط جمادى الأولى ، عام إثنين وثلاثمائة وألف .

ومنه : والزاوية المذكورة تدعى وتنسب للولي الصالح ، والقدر العالي الشامخ ، ذي الأسرار الواضحة ، والأذكار النافعة المفلحة ، والبركات الشامخة ، والعوائد التي يستمطر منها نفحاته ، والخيرات المتبرك بئاثارها أصحابه وخدمته ، خير الأخيار ، وشرف الأبرار ، القطب سيدي المختار الكنتي ، نفعنا الله ببركاته ، وأعاد علينا – بخدمته – وفر نفحاته ، خدم المحبس جانبه بذاك ، ولازم رضي الله بسلوك ذلك المسلك ، والله يتقبل الأعمال ، شهد به عليه معنا تقدم ، صح به .

انتهت الوثيقة منقولة من أصلها ، المذيل بتوقيعات أربعة من عدول فاس الادريسية ، ثم أداء قاضيها .

خزانة خاصة .

ملحق 4

إجازة كنتية صادرة عن السعيد المعروف بالسعيدي بن محمد المهدي المنوني . وضمنها لائحة المؤلفات الكنتية .

الحمد لله وحده ، بسم الله الرحمان الرحيم ، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليمًا .

لما أذن لنا الشريف المنيف ، الفقيه العالم الغطريف ، الفاضل النزيه العفيف ، المتصف بأوصاف الكمال ، المتخلق بأخلاق الكمّل ، ذو الشيم الحسنة ، والأخلاق المستحسنة ، الذي كل القلم عن أوصافه ، وعجز اللسان عن كنه ذاته وأحواله ، الشاب في طاعة الله ، الباحث عن كمالات أهل الله ، الآخد في طريقة أهل الله الكوكب الوقاد ، الرحالة النقاد ، سيدي ومولاي عبد الحي ، بن الولي الصالح ، الفرد الناصح ، الفقيه العالم المربي ، سيدنا ومولانا عبد الكبير الكتاني ، أبقى الله جلالهم محروسا ، وربع ساحتهم لا يخشى دروسا ، بجاه من له الجاه ، مولانا رسول الله ، صلى الله تعالى عليه وعلى آله عدد ماخلق الله ، وعدد ما في علم الله :

في الأوراد التي قيدها لنا و خطها بأنامله وأجازنا فيها إذناً عاما بعدما طلبنا منه ذلك : طلب منا أن نأذن له في الأوراد المختارية ، والتوجهات النورانية ، لما

رأى ببصيرته النورانية ، وإن كنت لست أهلا لأذن له في ذلك .
فقد أذنته في ذلك ، وفي إعطائه لمن رآه أهلا لذلك ، بعد الاستخارة المعهودة في ذلك ، المؤخوذة عن الشريف المنيف ، الخير العفيف ، المقدم الأرضى ، المرحوم بكرم الله المرتضى ، سيدي محمد بن عبد الهادي الدباغ الحسني الادريسي الفاسي .
وأخدتها أيضا عن الفقيه العالم العلامة سيدي محمد بن دح ... عن شيخه سيدي المختار الحفيد ، عن أبيه الولي الكامل ، والشيخ الواصل ، سيدي محمد ، عن والده وشيخه القطب أبي الأنوار والاسرار ، سيدي المختار ، عن شيخه سيدي علي بن النجيب إلى آخر السند المذكور في «الطريفة و التالدة» وإن كان في السلسلة التي في «الطريفة و التالدة» تقديم وتأخير من النساخ الذين استخرجوا كتابتها من المبيضة ، كما سمعنا ذلك من الفقيه سيد محمد بن دح المذكور قيد حياته رضي الله عنه ونفعنا ببركاته ، ونبهنا عليه .

والورد المختار يذكر دبر كل صلاة من الصلوات الخمس ، وهو :

حسبنا الله ونعم الوكيل مائتي مرّة 200 ، أستغفر الله كذلك مائتي مرّة 200 ، لاإلاه إلاّ الله الملك الحق المبين مائة مرّة 100 ، اللهم صلّ على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وسلم تسليما مائة مرة : 100 . وإن وجد الانسان قوة وانشراحا للزيادة فليصل صلاة الضحى وتسمى «صلاة الاشراق» ، يقرأ في الركعة الأولى «الفاتحة» وسورة «والشمس وضحاها» ، وفي الثانية بسورة «وضحى» ، ويذكر في سجود الركعة : اللهم ارحم ذلي وضراعتي إليك ، وأنّس وحشتي بين يديك ، وارحمني برحمتك ياكريم ، إنك على كل شيء قدير ، وإذا سلم من ركعتي الضحى فليدع بهذا الدعاء عشر مرات : اللهم يا منور ، يا فتاح نور قلبي بنور معرفتك ، وافتح لي أبواب حكمتك ، وانشر عليّ من خزائن رحمتك ، إنك على كل شيء قدير ، وبالاجابة جدير .

وبعد صلاة المغرب : ست ركعات ، تنوي بالركعتين الأوليين قضاء الحوائج ، تقرأ في الركعة الأولى بعد «الفاتحة» سورة «الكوثر» ست مرّات ، والركعة الثانية : سورة «يأأيها الكافرون» ست مرّات ، وتدعو في سجودهما بهذا الدعاء ، وهو : اللهم رب اشرح لي صدري ، ويسر لي أمري ، واهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت ، وتولني فيمن توليت ، وتنوي بالركعتين الثانيتين حفظ الايمان ، تقرأ في الأولى بعد «الفاتحة» سورة «الاخلاص» ست مرات ، وفي الركعة الثانية سورة «الفلق» وسورة «قل أعوذ برب الناس» مرة مرة ، وتقرأ في سجودهما اللهم إني أستودعك ديني وإيماني فاحفظهما علي في حياتي وعند وفاتي وبعد مماتي ،

وتنوي بالركعتين الأخيرتين النجاة من أهوال يوم القيامة ، تقرأ في الركعة الأولى : بعد الفاتحة : آية الكرسي مرة واحدة ، وفي الركعة الثانية : آخر سورة الحشر لو أنزلنا هذا القرآن إلى السورة ، ويدعى في سجودهما بهذه الآية الكريمة : ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب : مرة واحدة في كل سجدة ، وبعد السلام منهما ومن الركعتين الوسطيين تدعو بهذه الاستخارة على هذه الكيفية ، وهي : اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تعلم ولا أعلم ، وتقدر ولا أقدر ، وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن كل ما أتحرك به من هذه الساعة إلى مثلها في حقي وحق غيري خير لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري وعاجله وآجله فاقدوه لي ويسره لي ثم بارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن كل ما أتحرك به من هذه الساعة إلى مثلها في حقي وحق غيري شر لي في ديني ودنياي ومعاش وعاقبة أمري وعاجله وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه ، وقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به ، إنك على كل شيء قدير .

وتزيد بعد صلاة الصبح وبعد صلاة المغرب حين تريد الشروع في الورد تقول : اللهم أجز عنا أشياخنا سيدي محمد بن دحُّ ، وسيدي المختار ، وسيدي محمد ، وسيدي المختار ، و ارض عنهم رضى لاسخط بعده أبدا : ثلاث مرات ، ثم اللهم ارض على روح غوث الثقلين : شيخنا سيدنا ومولانا عبد القدر الجيلاني ، وعلى أشياخنا ، أولهم وآخرهم : ثلاث مرات ، ثم تقول سبعا : لا إلاه إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، ثم تقول : اللهم يالطيف أسألك اللطف فيما جرت به المقادر سبع مرات ، ثم اللهم ياواحد يا أحد يا موجود إنفحني منك بنفحة خير تغنيني بها عمن سواك إنك على كل شيء قدير : سبع مرات ، ثم تقول اللهم بارك لي في الموت وفيما بعد الموت : أربعا وعشرين مرة ، ثم تشرع في الحسبلة والاستغفار والهيللة والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله : العدد المقيد حوله وبعد ذلك كله تذكر «السيف» المعروف بسيف الحكماء ، وهو ياألله ياألله ياألله ، يارب يارب يارب ، يارحمان يارحمان يارحمان ، يارحيم يارحيم يارحيم ، لا تكلني إلى نفسي في حفظ ما أملكتني مما أنت أملكه مني ، وامددني بدقائق اسمك الحفيظ الذي حفظت به جميع الموجودات ، واكسني بدرع من كفالتك وكفايتك ، وقلدني بسيف نصرك وحمايتك ، وتوجني بتاج عزك وكرمك ، وردّني برداء منك ، واركبني بمركب النجوة في الحياة وبعد الممات ، بحق بجس أمدني بدقائق اسمك تدفع به من أرادني .

بسوء من جميع المؤذيات ، وتولني ولاية العز يخضع له كل جبار عنيد ، وشيطان مريد ، ياعزيز ياجبار ياعزيز ياجبار ياعزيز ياجبار اللهم سخر لي في جميع خلقك كما سخرت البحر لسيدنا موسى عليه السلام ، ولين لي قلوبهم كما لينت الحديد لسيدنا داوود عليه السلام ، فإنهم لاينطقون إلا بإذنك ، نواصيهم في قبضتك ، وقلوبهم بيدك ، تصرفهم حيث شئت ، يا مقلب القلوب ثبت قلبي على الايمان : ثلاثا ، ياعلام الغيوب 3 ، أطفأت غضب الناس بلا إلاه إلا الله ، واستجلبت مودتهم بسيدنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ ، فلما رأينه أكبرنه ، إلى قوله : ملك كريم ، ياأيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا ، وكان عند الله وجيها ، وألقيت عليك محبة مني ، يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله ، والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين ، أو من كان ميتا فأحييناه ، إلى قوله : زين ، أدعوا الله أو أدعوا الرحمان ، إلى تكبيرا ، الله أكبر وأعز وأجل مما أخاف وأحذر : ثلاثا .

وبعد نصف الليل : صلاة التهجد ركعتين ، ينوي بهما النجاة من موت الغفلة والجهل :بسورة الكهف والدخان ، أو بسورة الرحمان وتبارك الذي بيده الملك ، وإن ضاق الوقت بسورة الكافرون والاخلاص ، وتدعو في سجودهما بدعاء صلاة الضحى ، وهي : اللهم ارحم ذلي وضراعتي إليك ، وأنس وحشتي بين يديك ، وارحمني برحمتك يا كريم ، إنك على كل شيء قدير : مرة واحدة في كل سجدة ، وبعد السلام منهما تقول : اللهم إني أسألك إيمانا دائما ، وقلبا خاشعا ، وعلما نافعا ، ولسانا ذاكرا ، وجوارح طائعة ، وعملا صالحا متقبلا بفضلك وإحسانك ، إنك أنت المحسن المتفضل : مرة واحدة ، والصلاة على النبي ﷺ : مائة مرة بالصيغة المتقدمة ، انتهى .

ومن خواص هذا الورد المبارك أن صاحبه لا يموت إلا على أحسن حال .

وكتب الشيخ سيدي المختار رضي الله عنه عديدة ، منها تأليف في التوحيد .

وتأليف فيه أجزاء ، سماه بفقه الأعيان في تفسير بعض أي القرآن .

وتأليف سماه هداية الطلاب في الفقه .

وله عليها شرح عجيب في أجزاء أربعة .

وله كتاب سماه الكوكب الوقاد في شرح الأوراد .

وكتاب الجرعة الصافية والنفحة الكافية .

وكتاب نضار الذهب من كل فن منتخب .

وكتاب البرد الموشا في قطع المطامع والرشي .

وكتاب المنية في مذهب أهل السنة .

وله نظم عجيب وعليه شرح سماه شرح الفضيلة .

وكتاب سماه مقلد النحور واللّبات في أجوبة لبّات ، ولبات اسم رجل .

وله كتاب سماه نزهة الراوي وبغية الحاوي في جزءين .

وكتاب كشف اللبس في الروح والنفس .

وكتاب كشف النقاب .

وله كتب عديدة نافت عن الثمانين كما سمعنا ذلك من الثقاة .

وكذالك الأحزاب تزيد على80

وله نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب .

وله نظم عجيب سماه بغية النيل على بيان جمل التسهيل .

وله رسائل عديدة وقصائد وتوسلات ذكرها ولده وخليفته الشيخ محمد سيدي في كتاب سماه الطريفة والتالدة في كرامات الوالد والوالدة أتى فيه بما لا مزيد عليه .

وللشيخ سيدي محمد المذكور منها : الطريفة و التالدة المذكور .

وتاليف سماه جُنة المُريد دون المَريد .

وشرح نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب ، سماه الروض الخضيب في شرح نفح الطيب .

وله شرح على المثلث خالي الوسط .

وله أحزاب وأدعية .

رضي الله عنهما ، ونفعنا بهما وبأمثالهما ، آمين ، وكتب عبد ربه ، وأسير ذنبه ، تراب نعال أهل الله : السعيد بن محمد المهدي المنوني الحسني المكناسي ، كان الله له ولجميع المسلمين ، آمين ، سابع وعشري محرم الحرام ، فاتح عام 1321 هـ .

خزانة خاصة

تمبوكتو : المركز التجاري السوداني

زهرة طموح
كلية الآداب – الرباط

ارتبط إسم السودان في أذهان الكثيرين بمدينة تمبوكتو كما ارتبطت التجارة العابرة للصحراء باسم هذه المدينة . وقد كان للمدينة علاقة خاصة ومتميزة مع المغرب ، وذلك لأنها استأثرت بنصيب الأسد في علاقاته مع بلاد السودان سواء العلاقات التجارية أو الثقافية أو السياسية . وقد ارتبطت شهرة المدينة إلى حد بعيد بنشاطها التجاري وبعلاقاتها المتنوعة والمعقدة مع مناطق متباينة من الناحية الاقتصادية سواء المناطق الصحراوية أو السودانية أو المتوسطية . إلا أن غنى المدينة جلب لها الكثير من الويلات ، لأنها كانت مسرحا لعدة صراعات سياسية ، وسنتناول المدينة كمركز تجاري وذلك من خلال أهمية موقعها وإشعاعها ، ثم وظيفة المدينة ونشاط السكان ، وأخيرا سنحاول أن نتطرق للتطور الذي عرفته المدينة مع الاشارة لبعض التحولات السياسية التي رافقت هذا التطور .

I – موقع المدينة وإشعاعها :

لعب موقع مدينة تمبوكتو دورا أساسياً في التطور الذي عرفته المدينة وفي إشعاعها . ذلك أن المدينة تقع في أعلى نقطة شمالية من ثنية نهر النيجر ، أي في المنطقة التي يتوغل فيها النهر داخل المناطق الصحراوية ، وهي بذلك تعتبر نقطة استقبال للمسافرين عبر الصحراء ، هي بوثقة من الحياة تتقدم كل المدن السودانية ، لإغاثة المسافرين العطشى .

وقد جمعت المدينة بين ميزتين : فهي مدينة صحراوية / قفلية كما أنها سودانية / نهرية(1) وبذلك توفرت على وسيلتين من المواصلات وهما الجمل ، والقارب ، استطاعت بواسطتهما أن «تغزو» كل المناطق المجاورة لها وحتى المناطق البعيدة بتجارتها .

تقع المدينة على بعد 15 كلم من نهر النيجر وهي بذلك ليست ميناءاً ، ولا تصبح ميناءا ، إلا خلال فترات قصيرة من السنة ، في فترة الفيضانات الكبرى ، والتي لا تتجاوز غالبا الشهر ؛ لكنها تتوفر على عدة موانيء تربطها بالنهر أهمها وأشهرها ، ميناء كَبَرَا الذي يبعد عن المدينة بحوالي 8 كلمترات ، ويصل إليه الماء خلال فترة الفيضانات من نونبر إلى مارس ، ويرتبط الميناء مع المدينة بحركة دائبة ، وخارج هذه الفترة تتوفر المدينة على عدة موانيء صغرى تربطها مع النهر(2) . وهناك معطيات طبيعية أخرى ساعدت المدينة على القيام بمهمتها التجارية إذ توجد بجوارها عدة مستنقعات مائية صالحة لسقو الجمال(3) كما أنها تقع بجوار آبار أزواد الغنية .

لموقع مدينة تمبوكتو ميزة أخرى ، وهي أنه يتوسط السودان الغربي ، إذا ما قورنت بمدينة كاو التي تقع نحو الشرق ، أو كمبي صالح التي تقع نحو الغرب ، لذلك فخلافا لهتين المدينتين اللتين كان لكل واحدة منهما علاقة متميزة مع منطقة من المناطق سواء الشرقية أو الغربية نجد تمبوكتو بموقعها الأوسط هذا ، تجذب إليها القوافل من كل المناطق ، كما أن موقعها على أعلى ثنية نهر النيجر جعل منها مصبا لكل القوارب التي تربط المدن السودانية فيما بينها فهي كالجوهرة التي تتوسط العقد ، جوهرة عقد نهر النيجر .

(1) Dubois (Felix) «Tombouctou la Mysterieuse» Paris Flammarion, 1897 p 294

(2) نفس المرجع ، ص . 226 – 228 .

(3) نفس المرجع ، ص . 287 – 288

هذه الظروف أعطت لمدينة تمبوكتو إشعاعها تجاريا خاصا ، فهي ترتبط مع المغرب ومع السودان بشبكة كثيفة من الطرق التجارية .

بالنسبة للشمال تربطها عدة محاور تجارية أهمها المحور الأوسط الذي يمر عبر مملحة تغازي وتاوديني فيما بعد(4) ينطلق هذا المحور من الواحات المتواجدة جنوب الأطلس وهو أهم محور لأن القافلة الكبرى السنوية «أكبار» التي كانت تربط المغرب ببلاد السودان كانت تسلكه ، وتكمن أهمية المحور في أنه يعبر مملحة تغازي الغنية . ونحن نعرف أن العلاقات بين المغرب والسودان قامت على أساس ثنائية الملح مقابل الذهب . كانت القافلة تسلك هذا الطريق رغم أنه طريق صعب لقلة مياهه ومنذ مغادرتها للمملحة تعبر الفيافي إلى أن تصل إلى أروان شمال تمبوكتو ، إلا أن هذه الظروف الطبيعية القاسية تهون أمام أهمية تغازي التي يقول عنها ابن بطوطة «وقرية تغازي على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر»(5) . هذه القرية كانت أهم نقطة في المحور التجاري بل وراء خلقه كمسلك ، لأن نصف جمال القافلة كان يسافر من المغرب بدون حمولة إلى تغازي ليحمل بالملح ويتابع طريقه نحو السودان .

هناك محوران آخران يربطان تمبوكتو بالمغرب أحدهما شرقي والآخر غربي ، الأول هو المحور الذي يربط توات بالمدينة ، وهو ممر طبيعي ، وذلك لأنه قريب من ناحية المسافة كما أنه المحور الأكثر ملاءمة وذلك لوفرة المياه والعشب طول الواحات ، هذه الواحات التي تتوغل بدورها داخل الصحراء كتوغل تمبوكتو مما جعلها تشكل يدا ممدودة نحو هذه الأخيرة ؛ والأهمية الاستراتيجية لهذا المحور هي التي كانت وراء الصراعات السياسية للاستيلاء على توات ووراءها طبعا التجارة مع تمبوكتو . أما المحور الثاني فهو محور غربي يربط سوس أو كلميم بمدينة تموبوكتو عبر شنقيط ويتفرع هذا المحور إلى عدة فروع يربط أحدهما شنقيط بتمبوكتو عبر ولاتة(6) .

أما فيما يتعلق بالجنوب فإن المدينة ترتبط ببقية بلاد السودان عبر ثلاث شبكات طرقية ، الشبكة الأولى جنوبية غربية وهي طريق الذهب من مناجم بوري وتمر

(4) أنظر اطروحتنا ص . 77 وما يليها :
. Tamouh (ZAHRA) «le Maroc et le Soudan au XIX^{e} siecle» Paris I, Sorbonne, 1982.

(5) رحلة ابن بطوطة : دار الكتاب اللبناني ، ص . 441

(6) طموح المرجع السابق

عبر جني ، سنسند ، سيكُو ، باماكو ويتوجه فرع من هذه الشبكة نحو الداخل نحو مناطق إنتاج الكولا .

أما الثاني فهو شبكة جنوبية شرقية وتتجه نحو مدينة كونك ثم نحو بلاد الاشانتي ويمر عبر هذه الشبكة ذهب لوبي إلى جانب الكولا . وهتين الشبكتين تسيطر عليهما ديولا الذين يقومون بدور الوساطة بين ثنية نهر النيجر والمناطق الغابوية . أما الشبكة الثالثة فتمر عبر بلاد الموسي وهي تتوجه نحو الشرق أكثر أي نحو بلاد هاوسة(7) .

هذه المحاور والشبكات الطرقية جعلت مدينة تمبوكتو توسع علاقاتها التجارية ، لتصل إلى المغرب وجنوب الجزائر وتونس حتى ليبيا أو مصر ، كما كانت لها علاقات تمتد لتشمل كل السودان الغربي بل حتى السودان الأوسط أي بلاد نيجيريا وغانا والمناطق الغابوية . لذلك فما يمكن أن نلخص به إشعاع المدينة هي أنها مدينة نموذجية من حيث علاقات المدينة التقليدية الافريقية لأن إشعاعها يفوق إشعاع الكثير من العواصم الافريقية الحالية .

II – وظيفة المدينة :

مدينة تمبوكتو ، خلافا لما قد ننتظره ، هي مدينة غير منتجة ، ذلك أن المناطق المحيطة بها فقيرة فلاحيا ، كما أنها بعيدة عن كل المناجم أو مناطق إنتاج المواد الأساسية في التجارة العابرة للصحراء . لذلك فالدور الذي قامت به تمبوكتو هو دور المستودع ، مستودع المواد التي تنتجها المناطق السودانية والغابوية والتي تدخل ضمن مواد التجارة الصحراوية ، ولا يمكن أن نفهم دور تمبوكتو إذا لم نشر إلى دور مدينة جني التي تقع في منطقة غنية جدا من الناحية الفلاحية كما أنها قريبة نسبيا من مناطق إنتاج الذهب ، ويقال أن مدينتي تمبوكتو وجني شقان لمدينة واحدة ، إحداهما تنتج والأخرى تخزن وتوزع(8) . وهكذا كانت المدينة تدخل في إطار توزيع محكم للعمل بالنسبة للتجارة السودانية والصحراوية ، حيث أن المدينة ، إلى جانب غياب الانتاج الفلاحي فيها ، تخلت عن النقل(9) أيضا وركزت نشاطها على استقبال التجار وعلى خدمتهم وهكذا يمكن أن نقول بلغة العصر أن مدينة تمبوكتو مدينة خدمات . وبالفعل فالتجارة فيها كانت بحاجة إلى خدمات ، فالمدينة كانت تعيش وضعية خاصة مرتبطة مع وصول القوافل إذ خلال هذه الفترة

(7) Abitbol (Michel) «Tambouctou et les Arma», Paris, Maisonneuve et Larose 1979, p 195

(8) Dubois مرجع سابق ، ص . 194 .

(9) نفس المرجع ، ص . 288

يتضاعف عدد سكان المدينة ، فحسب شهادة «دوبوا Dubois يتضاعف عدد سكانها مرتين ، وهي شهادة عن آخر القرن 19 ، أي في فترة ضعفت فيها التجارة بشكل ملحوظ فكيف كان الحال فترات الازدهار التجاري والتي لا تتوفر على شهادات عنها ، لكن التخمينات تجعلنا نتصور أن عدد السكان كان يتضاعف عدة مرات . سنحاول أن نرى طبيعة هؤلاء الوافدين قبل التطرق إلى نشاط التمبوكتيين . الوافدون للمدينة صنفان ، الأول هم الوافدون من المناطق البعيدة وهم التجار والمكلفون بالنقل سواء سياقة الجمال أو القوارب ، كان التجار وخاصة الأغنياء منهم . – يسكنون داخل المدينة سواء عند التمبوكتيين أو عند معارفهم ، أما المرافقون للقوافل والتجار الصغار فإنهم كانوا يقطنون خارج المدينة . في أكواخ معدة لهذه المهمة(10) .

الصنف الثاني هم الوافدون من المناطق القريبة من المدينة وهم سواء المناطق الصحراوية أو المجاورة للنهر ، وهم مجموعة من الباحثين عن العمل ، ذلك أن وصول القوافل كان مناسبة لخلق فرص موسمية للشغل كالحمل والسياقة ولف البضائع إلى غير ذلك .

أما بالنسبة لسكان المدينة أو السكان المستقرين بشكل دائم فيمكن أن نقسمهم إلى صنفين أيضا . هناك التجار الأجانب خاصة تجار الشمال أي تجار فاس ، تافيلالت ، توات ، غدامس وغيرها ، وهم تجار يستقرون لمدة معينة قد تستمر عدة سنوات يقدرها روني كاييي بثلاث أو أربع سنوات(11) . وذلك قصد الحصول ، على ثروة والرجوع بها إلى بلادهم . وهذه الجالية غنية جدا لأنها هي التي تحتكر التجارة العابرة للصحراء ؛ فمنذ القرن 16 لاحظ الوزان «أن السكان أغنياء مترفون لاسيما الأجانب المقيمين في البلاد» وهي شهادة أكدتها بالخصوص كتب الرحلات الأوربية خلال القرن 19 حيث ظلت التجارة العابرة للصحراء رغم تراجعها محتكرة من طرف تجار الشمال(12) .

هؤلاء التجار يقطنون أرقى الأحياء في المدينة كما أن منازلهم هي أجمل المنازل(13) هذه الوضعية المتميزة ، هي التي جعلت أصحاب السلطة السياسية

(10) نفس المرجع

(11) Caillie (René) «Journal d'un voyage à Tambouctou et a Jenné dans l'Afrique centrale», 3 vol, Paris 1830, B.T. II, P 331

(12) نفس المرجع ، II ، ص . 203 .

(13) نفس المرجع ، II ، ص . 309

يتقربون منهم بشتى الوسائل بما فيها المصاهرة فالوزان يذكر للتأكيد على غنى الأجانب ووزنهم «حتى أن الملك الحالي زوج اثنتين من بناته من أخوين تاجرين لغناهما»(14) .

أما بالنسبة للتمبوكتيين أو السكان الأصليين فإن نشاطهم يكمن أساسا في الخدمات كما سبق أن ذكرنا .

وتتلخص هذه الخدمات في الاسكان ، إسكان التجار ، وفي الوساطة التجارية ، وفي توجيه الصفقات التجارية بإسداء النصائح وتقديم معلومات حول السوق للتجار . فسكان تمبكتو كانوا يقومون بدور أصحاب الفنادق . لكنها فنادق من نوع خاص لأن السكنى تكون في منازل . وقد كان الأغنياء منهم يملكون من 10 إلى 15 منزلا تستعمل كمساكن للتجار وكمستودعات لبضائعهم(15) . وقد جرت العادة أن التمبوكتي يستقبل ضيفه ويتكفل بإسكانه وبأكله وشرابه مدة ثلاثة أيام بدون مقابل(16) وفي اليوم الرابع تبدأ المفاوضات حول الخدمات التي يمكن أن يسديها التمبوكتي للتجار . ثلاثة أيام تبدو قليلة لكنها كفيلة بإراحة التاجر من عناء السفر ، واستعمالها كهدية استقبال ، للضيف التاجر هي وسيلة لكسبه ، لأن التجار يمكثون غالبا في المدينة ما يزيد على ثلاثة أشهر .

وإلى جانب الاسكان يقوم التمبوكتي بدور الوسيط بين التاجر الأجنبي والتجار الكبار في المدينة خاصة وأن العلاقات الشخصية تلعب دورا كبيرا في التجارة كما أنه يوجهه بإعطائه معلومات حول وفرة بعض المواد ، أو ندرتها وحول إمكانية وصولها أو استحالته لأنه يعرف مستجدات السوق السودانية . والوساطة أنواع هناك الوسطاء المتخصصون في بعض المواد خاصة الذهب والأثواب والحيوانات ، كما أن دور الوساطة قد يقوم به حتى الأطفال أو النساء(17) .

وتكملة لهذا الدور ، دور الخدمات ، يقوم التمبوكتيون بالسيطرة على تجارة المواد الاستهلاكية أي كل المواد التي تدخل في الاستهلاك اليومي خاصة التغذية ، ويلعب النساء دورا أساسيا في هذه التجارة إذ منذ القرن 16 لاحظ الوزان أن

(14) الوزان (الحسن بن محمد) : «وصف افريقيا» ترجمة الدكتور محمد حجي والدكتور محمد الأخضر دار الغرب الاسلامي والشركة المغربية للناشرين المتحدين . الطبعة الثانية ، 1983 . الجزء الثاني ص . 166 .

(15) Dubois ، مرجع سابق ، ص . 295 .

(16) نفس المرجع .

(17) نفس المرجع ، ص . 300

«الجواري ... يبعن كل أنواع المطعومات»(18) . وقد استمرت الوضعية إلى القرن 19 حيث أكدها بالخصوص دوبوا(19) .

III – تطور المدينة :

هذه المدينة الجوهرة كما سميناها والتي أسدى عليها المؤرخ السوداني عبد الرحمن السعدي أجمل الصفات وقدمها بأبلغ العبارات قائلا «هذه البلدة الطيبة الطاهرة الزكية الفاخرة ذات بركة ونجعة وحركة التي هي مسقط رأسي وبغية نفسي ما دنستها عبادة الأوثان ولا سجد على أديمها قط لغير الرحمن مأوى العلماء والعابدين ، ومألف الأولياء والزاهدين ، وملتقى الفلك السيار»(20) هذه المدينة المباركة كما سماها السعدي يورد أنها تأسست على يد الطوارق مغشرن في أواخر القرن الخامس الهجري حيث جعلوا منها خزانة لمتاعهم أثناء تنقلهم نحو ولاتة وكانت تحرس متاعهم خادمة لهم تدعى تنبكت ومعناها العجوز بلغتهم فأطلق إسمها على الموضع(21) . وقد زارها ابن بطوطة خلال رحلته إلى السودان ووجد بها قبر أبي إسحاق الساحلي ، لكنه لم يتوقف طويلا عندها لأن أهميتها التجارية محدودة فمدينة ولاته أوبيرو لازالت هي المركز التجاري المهم(22) لذلك فوصف مدينة تمبوكتو والحياة في المدينة لن نجده بشكل مدقق إلا في كتاب الوزان وذلك خلال القرن 16 ، فالوزان عاصر أوج تطور المدينة ، وقد زارها مرتين ، وأعطانا لوحة حية عن الحياة الاقتصادية في المدينة وعن الحياة السياسية والثقافية وحتى الاجتماعية فيها ورغم قصر الوصف فإنه بالغ التعبير . أما الحياة السياسية والعمرانية للمدينة أو التطور الذي عرفته المدينة فقد خلفه لنا السعدي الذي تحدث عن تعاقب الدول الحاكمة على المدينة وعن تطورها العمراني . ولا يمكن فهم تطور مدينة تمبوكتو إلا إذا تم وضعه في إطار سياق تاريخي ، أي ربط تطورها بالظروف التاريخية التي عرفها السودان الغربي ابتداء من القرن 14 . تطورها إذن يعكس واقعا معينا هو تحول الطرق التجارية التي تربط المغرب مع السودان من الغرب نحو الشرق ، المحور الساحلي الغربي كان مرتبطا مع امبراطورية غانا وقد ظلت أهميته مستمرة لكن المركز الأساسي كان هو مدينة ولاته أوبير ، التي ازدهرت مع امبراطورية مالي . أما اختيار

(18) الوزان ، ص . 166

(19) Dubois ص . 202

(20) السعدي (عبد الرحمن) ، تاريخ السودان ، باعتناء وترجمة هوداس ، باريز 1964 ، ص . 20 – 21

(21) نفس المرجع .

(22) ابن بطوطة ، ص . 451

تمبوكتو فقد جاء لتوجه الطرق نحو الشرق أكثر ، حيث أصبح المركز السياسي الجديد مدينة كاو عاصمة السنغي ، فأصبحت تمبوكتو تدريجيا وريثة بير كما يشهد السعدي «وكان التسوق قبل ذلك في بير واليه يرد الرفاق وسكن فيه الاخيار من العلماء والصالحين . وذوي الأموال من كل قبيلة ومن كل بلد من أهل مصر ووجل وفزان وغدامس وتوات ودرعة وتافيلالت وفاس وسوس وبيط إلى غير ذلك ، ثم انتقل الجميع إلى تنبكث قليلا»[23] .

بل أن تمبوكتو فاقتها لأنها ستشهد تطورا عمرانيا وثقافيا لم تشهده مدينة بير[24] . ويؤكد السعدي أن «العمارة لم تأته إلا من الغرب لا في الديانات ولا في المعاملات»[25] . ويشير إلى تطور المدينة الذي انعكس في البناء ذلك أن السكن تحول تدريجيا من الزريبات المسيجة بالأشواك إلى بناء الجدران والأسوار[26] ويصف الوزان المنازل بأنها كانت عبارة عن أكواخ يستعمل في بناءها أوتاد مملوطة بالطين ومسقوفة بالتبن[27] ويؤكد الوزان فكرة التطور ذلك أن المدينة قد وصلها الفن المعماري الأندلسي لأن المسجد والقصر بنيا بطريقة جديدة[28] مخالفة للأكواخ البسيطة وقد ارتبط عمران المدينة مع مانسا سليمان[29] ومانسا داوود[30] .

عرفت هذه المدينة ازدهارا حضاريا فريدا من نوعه في بلاد السودان ، وقد انعكس ذلك على الحياة اليومية للسكان الذين لاحظ الوزان أنهم مترفون[31] وذكر قعت بشكل مفصل الحياة في المدينة حيث وصفها بأنها وصلت إلى أوج جمالها ، وأن تعاليم الاسلام أعطت الروح للحياة الدنيوية والدينية في المدينة بل أكد أن الأقطار الاسلامية الممتدة من بلاد مالي حتى أقصى المغرب لم تكن تتوفر على مدينة مشابهة لها ويؤكد صاحب الفتاش أن ذلك. راجع لعدالة حكامها وللحرية والأخلاق اللذين يسودان بالمدينة ، وللتعاون والتآزر الذي يطبع العلاقات بين الناس

(23) السعدي ، ص . 21
(24) بنفس المرجع
(25) بنفس المرجع
(26) بنفس المرجع
(27) الوزان ، ص . 165
(28) بنفس المرجع
(29) نفس المرجع .
(30) السعدي ، ص . 22
(31) الوزان ، ص . 166

خاصة نحو الفقراء والأجانب والطلبة[32] . وهكذا يقدم لنا صاحب تاريخ الفتاش مدينة مثالية قبيل الحملة السعدية ويذكر أيضا أن المدينة رغم المصاعب التي عاشتها مع الحملة ، استطاعت أن تحافظ على توازنها لأنها استعادت بسرعة إشعاعها التجاري والثقافي[33] . ولن نتوقف عند الحياة الثقافية والاشعاع الثقافي للمدينة لأن دورها في بلاد السودان هو بلا شك يشبه الدور الذي لعبته مدينة فاس في شمال افريقيا ، وتكفي إشارة الوزان بأن تجارة الكتب كانت منذ ق 16 تدر أرباحا تفوق أرباح سائر البضائع .

وهذه القدرة على الحفاظ على التوازن وعلى الاستمرارية ، رغم المصاعب ، هي التي أنقذت المدينة خلال تاريخها الطويل من الخراب ؛ فرغم تعاقب سلطات سياسية مختلفة على حكم المدينة والمتمثلة فيما أورده السعدي ، أن المدينة قد حكمتها دولة مالي مدة قرن من القرن السابع الهجري إلى القرن الثامن ثم الطوارق ومدة حكمهم أربعون سنة ثم السنغي ومدة حكمهم مائة سنة ثم السعديون[34] . ورغم الصراعات السياسية التي عاشتها سواء بين أطراف بعيدة كالصراع السعدي السنغي ، أو داخلية كالصراع السياسي الذي عرفته المدينة قبيل الحملة بين أبناء أسكيا الحاج محمد فقد استطاعت المدينة أن تخرج «مرفوعة الرأس» من هذه الصراعات وذلك لأهمية موقعها ولحيويتها فكل الأطراف مهما اشتد نزاعها ، كانت حريصة على استمرارية الحياة التجارية بالمدينة ، فحتى الحملة السعدية التي كانت بمثابة أكبر ضربة سياسية للمدينة ؛ حيث عاشت بعدها وضعية عدم استقرار سياسي نتيجة تنازع الباشوات على الحكم[35] ، مع ذلك استطاعت مصالح المدينة أن تتفوق على النزاعات وأن تصهر حتى هؤلاء الوافدين الجدد ، أي الرماة ، في منطقها التجاري فالرماة الذين سيطروا على المدينة من الناحية السياسية منذ الحملة 1591 إلى صعود إمارة ماسينا 1833[36] تكيفوا مع واقع المدينة ، فبعد استقرارهم بها سيتخلى جزء منهم عن مهنته العسكرية ، ليقوم بدور الانتاج حيث سيتخصص جزء منهم في صناعة الأحذية ، لأن مدينة تمبوكتو عرفت حرفا متنوعة مثل النسيج ، والدباغة ، والحدادة إلى غير ذلك وكانت كل حرفة من اختصاص مجموعة اثنية / مهنية[36] .

(32) قعت (محمود) : «تاريخ الفتاش في أخبار البلدان و الجيوش وأكابر الناس» باريز 1964 : 312 – 313
(33) المرجع السابق ، ص . 316
(34) السعدي ، ص . 22
(35) Abitbol ، أنظر لائحة الباشوات في الصفحة 250 وما يليها .
(36) مرجع سابق ، ص . 181 – 182 .

هذا التوازن والحركة التجارية استمر انعكاسه على الحياة اليومية للسكان حتى القرن 19 حيث شهد روني كاييي بأن تغذية السكان جيدة وأنها تتكون من الأرز والكسكس مع الملح والسمك . كما قدم شهادة متكاملة حول نظافة الشوارع والمنازل ثم نظافة الملابس ونظافة السكان أنفسهم(37) .

ما يمكن أن نخرج به كخلاصة هو أن هذه المدينة مدينة متميزة بل ربما مثالية فهي بحركتها التجارية الدائبة ، ونشاطها الصناعي ، واشراك مختلف الشرائح الاجتماعية في الحياة الاقتصادية ، كالنساء والأطفال ، ثم خلق فرص للشغل ليست للسكان فقط بل للكثير من الوافدين ، لكل حسب طاقته الجسمية والمادية أو كفاءاته وعلاقاته ، يضاف إلى ذلك علاقة التمبوكتي بالمجال عبر اعتنائهم بالأماكن التي يتحركون فيها ثم روح التسامح التي سادت المدينة نحو كل المحتاجين وأخيرا تغذية يومية أقل ما يقال عنها أنها جيدة ، كل هذه المعطيات – إلى جانب مرح السكان الذين فطروا عليه كما عبر عن ذلك الوزان تجعلنا نحلم بمدينة تمبوكتو كما حلم بها الكثير من المعاصرين .

(37) Caillie ، II ، ص . 319 – 321 .

توات والتدخل الفرنسي

محمد المعزوزي

لا يمكن استيعاب قضية الصحراء ومسألة الحدود دون الرجوع إلى الحوادث التي مر بها المغرب في القرن الماضي ، فلابد إذا من تتبع هذه المراحل لمعرفة أسباب تقلص التراب المغربي وبتر أجزاء هامة منه .

وقضية الوحدة الترابية بما فيها قضية الصحراء ، إنما هي راجعة لمشاكل الحدود التي خطط لها الاستعمار بدقة ومهارة ، ودراسة الحدود (Lémologie) بكيفية دقيقة تتطلب أكثر من جلسة أو محاضرة ... لأنها هي التي تبين لنا بوضوح كيف وقع هذا الاقتطاع وما هي الوسائل التي التجأ إليها المستعمر شيئا فشيئا لبتر هذه الأجزاء الهامة من التراب المغربي وضمها إلى مستعمراته أولا ثم إلى القطر الجزائري ثانيا .

وسنحاول مع ذلك تسليط بعض الأضواء على هذه الأحداث التي أدت إلى تقليص ترابنا وفصل مناطق توات بالخصوص عن الوطن الأب .

بعد احتلال غرناطة في يناير 1492 وتقهقر العرب في الأندلس عزم الاسبان على تعقب العرب فيما وراء المضيق وشرعوا في خطتهم من أجل غزو المغرب أو على الأقل غزو شاطئه الاستراتيجي وذلك بعد تحديد وتوزيع مناطق النفوذ الاسباني والبرتغالي وكان ذلك تنفيذاً لوصية إزابيلا الكاتوليكية بمحو الاسلام من الأراضي البربرية؛ وتعددت الهجمات على التراب وخاصة مليلية (1496) وأكادير وأزمور (1503) والجديدة والمرسى الكبير (1506) وآسفي (1507) ووهران (1509) والعرائش (1610) والمهدية (1614)) والحسيمة (1673)؛ واحتل البرتغاليون سبتة أول الأمر سنة 1415 ثم الاسبان سنة 1580 .

وقد شرع في هذه الحملة منذ القرن الخامس عشر واستهدفت كل شواطيء الشمال الافريقي؛ ولما دهم الخطر الجزائريين والتونسيين استنجدوا بالأتراك والعثمانيين ، فرد الأتراك الاسبانيين على أعقابهم واحتلوا البلاد من ناحية طرابلس الغرب إلى حدود المغرب الأقصى .

ونظمت المقاومة في المغرب للتصدي لخطر النصرانية . وقاد السعديون في القرن السادس عشر ، ثم العلويون في القرن السابع عشر الجهاد ضد الغزاة ووطدوا مواقعهم في بلاد توات .

وكان توسع الفرنسيين في السينغال وغزوهم الجزائر منذ سنة 1830 سببا في المصاعب التي واجهها المغرب وتونس طوال القرن التاسع عشر . وقد أخل احتلال الجزائر بوحدة الشمال الافريقي وأثار كثيراً من الأطماع .

واعترض المغرب على محاولة الفرنسيين إقتطاع بعض أجزاء التراب الوطني في شمال شرق البلاد . لكنه هزم في معركة إيسلي قرب وجدة سنة 1844 وهوجم من جميع الجهات وخصوصاً في تطوان سنة 1859 ، ثم وجد نفسه بعد سنة 1878 وجها لوجه أمام مجموع الدول الكبرى التي بدأت تلتجيء إلى سياسة التوسع .

وكانت معاهدة للامغنية سنة 1845 قد حددت الجهة الشرقية إلى ثنية الساسي ولم يكن لذلك من نتيجة سوى تقوية أطماع الاستعمار الفرنسي فاعتدت جيوشه على ترابنا في الشرق وفي الجنوب .

واشتدت المنافسة منذ سنة 1900 بين الدول الكبرى الاستعمارية ورأى الاستعماريون في كل أعمال المقاومة المغربية ذريعة للوصول إلى احتلال المغرب وبدأ التوغل من الجهة الشرقية الجنوبية كما سنراه .

وحين تم احتلال الجزائر بدأت المناورات الفرنسية ضد تونس والمغرب على

أساس أنه لم تكن للجزائر حدود جغرافية مضبوطة . ولقد حصل الوفد الفرنسي أثناء مفاوضات 1844 على هذه الميزة التي ستعطي للجيش الفرنسي فرصة لخلق مشاكل الحدود وليتسنى له استعمال حق المتابعة داخل التراب المغربي .

معاهدة للامغنية بتاريخ 18 مارس 1845

فهي تهم تحديد مناطق الحدود . الشرقية وقد أبرم الطرفان هذه الاتفاقية الهامة التي نقتبس منها بعض النقط المهمة قبل أن نتطرق إلى مفعولها في العلاقات المغربية الفرنسية وما ترتب عنها طيلة نصف قرن .

الفصل الأول :

اتفق الطرفان على أن الحدود الفاصلة بين المغرب والنفوذ التركي بالجزائر فيما سبق هي التي سيجرى بها العمل بين المغرب والجزائر ، وأنه لا ينبغي لأحد من الطرفين أن يجتاز حدود الآخر . كما يتحتم على كل منهما أن لا يشرع من الآن فصاعداً في أي بناء جديد على خط الحدود وأن لا يبني هذا الخط بعلامات من الحجر ، وبعبارة أدق تبقى الحدود على ما كانت عليه بين البلدين قبل فتح الجزائر من طرف الفرنسيين .

الفصل الثالث :

يشير إلى تحديد الخط من وادي عَجْرُود إلى ثِنْيَةِ الساسي ...

الفصل الرابع :

أما في الصحراء لا توجد حدود بين الطرفين لكونها لا تحرث وأنها لا تصلح إلا للمرعى حيث يُخَيِّمُ هناك سكان البلدين الذين يتنقلون للحصول على المرعى لماشيتهم والماء الضروري لحياتهم . ولكل من المتعاهدين حق التصرف في رعاياه القاطنين بالصحراء كيفما شاء وحسب الحقوق المخولة له . وإذا أراد أحد المتعاهدين أن يتدخل ضد رعاياه ، فيما إذا وقع شيء بين هؤلاء وأولائك فيسمح له بأن يعمل ما شاء في رعاياه دون أن يقوم بأي شيء إزاء الحكومة الأخرى .

الفصل الخامس :

يتعلق هذا الفصل بتعيين «القصور» التابعين لكل من الدولتين ، وأما القصور

التابعة للمغرب فهما : إِيِّش ، وفكيك . وأما القصور التابعة للجزائر فهي : عين الصفراء . صْفيصِفَة ، عَسْلة . تِيُوت . شلالة . العبيد وبوسَمْغُون .

الفصل السادس :

وفيما يخص الناحية الكائنة في جنوب القصور المنتمية إلى الحكومتين فبما أنه لا يوجد ماء وبما أنه لا تُسْكَنُ نظراً لكونها صحراء جرداء فلا حاجة إلى تحديدها ...

وقد وضع هذا الاتفاق حدوداً تتفق مع الوضعية الطبيعية والتاريخية التي كونت خصائص المملكة المغربية .

وسنتعرض في لمحة إلى بعض الأحداث حسب مجرى التاريخ لتتبين لنا الخطة التي سلكها الاستعمار الفرنسي منذ أن حصل على معاهدة للامغنية .

من المعلوم أن الاحتلال الفرنسي لم يكن في نيته أبداً أن يكتفي بالغنيمة الجزائرية ، بل كان يفكر دائما في التوسع سواء من الجهة التونسية أو من الجهة المغربية وإليكم ما فاه به سيد «تَارْدْيو» أمام البرلمان الفرنسي ذاكراً :

«إن لفرنسا الحقُّ في توجيه السياسة المغربية ليمكن لها صيانة الجزائر الفرنسية « ....» وينبغي أن نحتاط من أن لا يتسرب نفوذ أجنبي داخل المغرب خوفاً من أن يتسرب بعد إلى الجزائر «...» فإذا أردنا الدفاع عن قلعة ينبغي أن لا نمكث داخلها فقط ، بل يجب أن نحرس جوانبها ... والمغرب إنما هو شارع الجزائر ...» .

وإذا كانت الظروف قد أرغمتنا على إبرام هذه المعاهدة فإن القبائل المجاورة للجزائر والتي فصلها المستعمرون عن بعضها لخلق الاضطرابات وجَعْلِ مُبَرِّرٍ لمتابعة المجاهدين داخل التراب المغربي ، لم يهدأ لها بال منذ وصول الجيش الفرنسي فوق ترابها فظلت ترد تهجمات العدو بشدة وتضايقه كلما حاول خرق الحدود .

ولم تتح لفرنسا الفرصة إلا في أواخر القرن العشرين بعد الحصول على «الوعود» السرية مع أنجلترا (سنة 1890) حينما وقع توزيع الصحراء بهذا التصريح :
«إن حكومة بريطانيا العظمى تعترف لفرنسا بمنطقة النفوذ في جنوب ممتلكاتها على البحر المتوسط ...»

ولقد صرح الوزير الأنجليزي (لُورْدْ سَالْسْبُوري) في نوع من الاستهزاء بهذه الجملة التي يفتخر بها الفرنسيون اليوم بعد عثورهم على خيرات الصحراء :

«إن الدِّيك الفرنسيَّ سيجد أين يَخْدِشُ في رمال الصحراء فلقد منحناها إياه بدون حساب ...».

وبهذا حاول المستعمرون أن يبرروا هذا الاستيلاء مدعين أن معاهدة للامغنية لم تعترف للمغرب بالتوات وأن المناطق المذكورة لم تكن ملكية لا للجزائر ولا للمغرب وأن احتلالها يجوز لفرنسا !!

وقد كتبت الصحيفة الانجليزية ((مُورْنين بوسْت)) وقتئذ عن قضية توات :

«إن ما تدعيه فرنسا في جعل التوات – وكورارة وتيكلت داخل منطقة نفوذها مسألة لا ترتكز على أساس رغم ما يقوم به ألم . دِلْكَاس ، وبعض رجال الدولة الفرنسية من أجل الاقناع ...»

واهتمت الدول الأوروبية بقضية توات والمناورات التي تدور حولها وخصوصاً أنكلترا التي كانت ترى في إكلي نقطة استراتيجية هامة يمكن لفرنسا أن تجعل منها مركزاً لارسال قواتها اتجاه وادي كير – وتافيلالت «لفتح القضية المغربية من الجهة الجنوبية» . وعن هذه الاتفاقية قال المستر الم «كوتي» المعروف بأبحاثه عن شؤون الصحراء :

«أراد المفاوض المغربي أن يحتفظ لبلاده وحده بحرية المواصلة مع السودان على طريق التوات ... وأن هذه الطريق الطبيعية كانت ولا زالت تحت النفوذ المغربي حيث يستعملها للمبادلات التجارية مع السودان ...»

وفي صفحة 46 من نفس الكتاب يعطينا المؤلف المذكور فرصة أخرى للاثبات : «... هذا ولقد ظل التوات إلى أواخر القرن التاسع عشر – كما كان في القرون السابقة – طريقاً مغربية تقوم بدور هام في تموين المملكة المغربية ...»
ثم يقول :
«لقد لقينا بالتوات باشوات يخضعون لنفوذ السلطان .. وكان يوجد باشا بتيمي ...»

ولنرجع إلى تعاليق الصحيفة الانجليزية في الموضوع قائلة :

«يظهر من الأهمية بمكان إذا أردنا تفسيرَ المعاهدة المذكورة أن نعرف أولا كيف كان يتصورها أصحابها في وقت صياغتها . ومن المعلوم أنه توجد وثيقةٌ تُبيّن بدقة كبيرة كيف كان تفهم الحكومة الفرنسية لمعاهدة 1845 وذلك بعد مرور 3 سنوات على إبرامها . والوثيقة المذكورة هي خريطة رسمية نشرتها الحكومة الفرنسية

سنة 1848 وبينت فيها بوضوح تام خط الحدود بين المغرب والجزائر مع جعل منطقة توات كلها في دائرة النفوذ المغربي .

بعد وفاة السلطان مولاي الحسن تطورت الحالة بالمغرب وبدأ الفرنسيون يفكرون جديا في قضية الاستيلاء على المغرب وكانت الدبلوماسية تتربص بنا الدوائر وتنتظر الفرص الملائمة كي لا تزعج المنافسين . فتارة يفكر رجالها في «سياسة التفاحة» وهي قطف المغرب بأجمعه، كغلة تامة النضوج وتارة في سياسة الخرشوف Politique de l'artichant وهي أكل المغرب ورقة ورقة . أما الآخرون الذين لم يصبهم ألم الجوع فيفضلون أن يبقى المغرب «يطبخ في مرقه» لمدة سنوات أخرى .

الحدود الترابية بين الامبراطورية التركية والمملكة المغربية

خلال الاحتلال التركي للجزائر كانت قضية الحدود الشمالية الشرقية للمغرب موضع محادثات متعددة مع السلطات العثمانية .

... وقد تميزت فترة القرنين السادس عشر والسابع عشر ، في هذا الصدد بثلاث أحداث هامة .

1 – مهمة الامام أبو عبد الله الخروبي ، سنة 1540 (موافق 961 هجرية) لدى السلطان مولاي امحمد الشيخ السعدي .

2 – الاتفاقية بين الامبراطورية العثمانية والسلطان مولاي امحمد للأسرة المالكة العلوية ، سنة 1647 .
وهي الاتفاقية التي أكدتها اتفاقيات مبرمة مع السلطان مولاي إسماعيل سنة 1691 .

3 – اتفاقية لالة مغنية لسنة 1845 .

إن كل الخرائط الموضوعة في هذه الفترة ضبطت أن الأقاليم الواقعة جنوب التروسفانة وواحات كورارة وتوات وتدكلت هي جزء لا يتجزأ من تراب المملكة المغربية الشريفة .

لقد لعب إقليم توات ، قبل ظهور النفوذين العثماني والفرنسي ، دورا كبيرا في كل الأنشطة التجارية والدينية والسياسية والاجتماعية لمجموع مناطق الصحراء الكبرى الافريقية .

ففي القرن التاسع الميلادي كانت تمر به طريق تجارية هامة منطلقة من جريد التونسية إلى بوروم على ضفاف نهر النيجير ، مارة بمنطقة وركلة وكانت البضاعات

الأوروبية القادمة من تلمسان تصل إلى تمنطِيطْ – التي تفوقت على بُودًا في القرن الثالث عشر الميلادي – عبر طريق سجلماسة .

ومن تمنطيط تنطلق القوافل المحملة بالبضائع إلى كل من والاطة والسودان (السنغال ، مالي ، النيجر) . وكان الحجاج المنطلقون من بلدان السودان ينزلون من ولاطة وتوات وغدامس قبل المضي في طريقهم شرقاً إلى بيت الله الحرام .

في القرن الخامس عشر الميلادي ورثت تنبكتو الأهمية لوالاطة ، وأقامت علاقات مع تونس عبر توات .

وعرفت مجموعة الوحات الجنوبية الشرقية المغربية نشاطاً وازدهاراً إثر أشغال استثمار وجلب المياه المعروفة بإسم (فكارات) وكان الحجم الديمغرافي لسكان عدد من القصور يتراوح بين الألفين والثلاث الآف نسمة للقصر الواحد .

ومن أهم ما تمثل فيه الازدهار رواج سوق الرقيق والذهب اللذين كانا يتقاطران على مراكز الفجارات .

ذكر الرحالة العياشي ، وهو يحج سنة 1663 عبر طريق توات أن :
«القوافل المنطلقة من تنبكتو ومن بلاد أكادز ، ومن مناطق السودان كانت تلتقي بتوات ، جالبة إليها مختلف أنواع البضاعات (جلود مخدومة ، شب ، ملح ، البارود ، حناء ، ثمور ، فحم ، مسحوق البارود ألبسة ....»

ومن تافيلالت وفكيك كانت تصل إلى توات بضائع : الشاي ، التوابل الزعفران ، السكر ، القهوة والزيت والشمع ، والورد المجفف ، والصابون ، والأواني والأنسجة القطنية والكبريت والأسلحة والرصاص والحبوب والملح وريش النعام .

مسألة التوات

ذكرنا أن معاهدة للامغنية تشير إلى ثلاثة مناطق :

1 – من البحر المتوسط إلى «تنية الساسي» مع تحديد الخط

2 – ومن «تنية الساسي» إلى المناطق التي لا تحرث ...» دون أي تحديد اللهم توزيع القبائل .

3 – أما ما يقع في جنوب «القصور» فلا حاجة إلى تحديدها ، نظراً لعدم الماء ولكونها لا تسكن (كما جاء في الاتفاقية) ومن هنا تسرب الداء . يطلق التوات على

تلك المناطق الجنوبية التي تمتاز بأشجار النخيل والواقعة بين عين صالح وڭورارة على مسافة 600 كيلومتر طولا وكانت هي الطريق الرئيسية التي تؤدي من فكيك إلى السودان ولقد ظلت مناطق التوات هي الطريق المغربية كما كانت عليه منذ القرون السابقة إلى آخر القرن التاسع عشر وهي مشهورة بنشاطها الهام في تموين المملكة المغربية ... (الم كوتي) . وهذا الممر الطويل الذي يطلق عليه الأجانب شارع النخيل يعد من أجمل الطرق الصحراوية .

تشكل الواحات الصحراوية التي تكون إقليم «توات» ثلاث مجموعات رئيسية ممتدة من الشرق إلى الغرب :

1 – مجموعة تيدكلت Tidikelt

2 – مجموعة توات Touat

3 – مجموعة ڭورارة Gourara

هذه الواحات عرفت من قديم بثروتها الكبيرة من أشجار النخيل ، وتميزها بحجم إنتاجي ودمغرافي متفوق . إن هذه المناطق الصحراوية تستفيد كثيراً من مياه السفح الجنوبي لجبال الأطلس المغربية .

فابتداء من إيكلي يتحول إسم واد إيكلي إلى واد الساورة ، ويتغلغل عميقا في الجنوب لأخصاب هذا الكم الهائل من الواحات والبساتين إلى كورارة ، الرحالة المكتشف روهيفس قال عن هاته الجنات :
«إن غابات النخيل تمتد من إيكلي إلى تاوريرت ، ويمكن للمرء أن يسير تحت ظلالها من بني عباس إلى عين صالح وما بعدها ، على مسافة تبلغ 400 كلم ، و 250 من الشرق إلى الغرب مرورا بكورارة وتوات» . إننا نعطي هنا نبذة عن كل من هاته المجموعات الثلاث التي تدعى بصفة عامة توات ، ومن هنا إسم الاقليم القديم ، ونبدأ بتيديكلت ومركزها عين صالح الهام ، أي بالمنطقة الجنوبية القصوى ، ثم نأتي على توات ، ثم ڭورارة .

1 – تيديكلت : تقع شرق ركان ، تمتد جنوب هضبة تادمايت ، على مسافة 240 كلم من الشرق إلى الغرب بين هجر بلاد الطوارق وواد الساورة ، وهي أقل مساحة بالنسبة لتوات وكورارة ، وكانت تيديكلت مقسمة إلى مقاطعات تتألف كل منها من قصور من بينها :

– مقاطعة أولف

– مقاطعة أقبلي ، وهي نقطة تجمع القوافل التي تربط بين توات وكل من تنبكتو وغدامس ، ويعتقدان أن هذه المقاطعة تأسست سنة 1230

– مقاطعة تيط

– مقاطعة عين غار

– مقاطعة عين صالح ، مركز تيديكلت ، وتعتبر عين صالح هذه ، وهي من أقدم الواحات – أهم مركز تجاري لمجموع المنطقة ، إذ تمر منها جميع القوافل السائرة من الشمال إلى الجنوب ومن الغرب إلى الشرق .

– مقاطعة فكارت الزوة وإقسطن حاسي لحجر : وتتألف من قصور قريبة من عين صالح .

وتقع فكارت زوة على الحدود الشرقية القصوى للادارة المغربية على ذلك العهد ، أي بملامسة المناطق التركية ، ثم من بعد ذلك بجيوش الاحتلال الفرنسية ، وحيث تيديكلت تقع على الحدود فإن قبائل الطوارق المترحلة بين الواحات الرئيسية كان لها تأثير واضح على هذه النواحي .

وبالمقارنة مع توات وكورارة يبدو أن تيديكلت هو الأكثر تمركزا على المستوى الدمغرافي ، فعين صالح وأولف وحدهما تجمعان أكثر من نصف حجم السكان .

2 – توات : تقع توات ، كما كانت موصوفة قبل الاحتلال ، بين سفوح هضمية كورارة التي تشكل الضفة الشرقية لوادي مسعود والضفة المقابلة التي تغطيها الكثبان العالية للعرق الغربي الكبير

وكانت توات مقسمة إلى نحو 10 مقاطعات تحتوي على 143 قصر :

– مقاطعة بودا ، وهي الطريق التجارية الكبرى التي تلتقي عندها طرق درعة وتافيلالت ، والتي تربط المغرب بالسنغال

– مقاطعة تيمي ، وأهم قصورها هو أدرار المركز التجاري الكبير الذي يربط توات بكل من تيديكلت وتنبكتو .

– مقاطعة تمنطيط

– مقاطعة أولاد الحاج أو بوفاد

– مقاطعة تاسفاوت

- مقاطعة تامست
- مقاطعة أولاد سيدي حمو
- مقاطعة إينزغمير
- مقاطعة سيال

منها مقاطعة ركان ، وأهم قصورها هي تمدنين وأنزغلوف وتاوريرت وهي ملتقى الطرق الرئيسية التي تربط تيديكلت بكل من : أغاديس والعايير وهجر وتنبكتو مروراً بتاودني . وبمقاطعة ركان هذه جرت التجربة الذرية الفرنسية سنة 1960 التي كانت موضع احتجاج قَدَّمَهُ المغفور له محمد الخامس عاهل المغرب إلى الجنرال دوغول ، لكون هذا الأخير استخدم منطقة تعد ضمن التراب المغربي .

ڭورارة : تقع ڭورارة أو تيكورارين شمال الواحات الصحراوية الأخرى ، وهي مؤلفة من : الهضبة التي يحدها شمالاً وغربا العرق الغربي وشرقاً تادميت ، وجنوبا وادي الساورة الذي دعي من بعد بواد مسعود .

تنقسم هذه المجموعة إلى 12 مقاطعة تضم 114 قصر ويقدر عدد السكان ب 80.000 نسمة .

- مقاطعة واكروت
- مقاطعة تين إركوك (بلاد لمحارزة)
- مقاطعة الجريفات .
- مقاطعة تين ميمون ، وهي أهم مقاطعات ڭورارة
- مقاطعة أولاد سعيد
- مقاطعة تيكانيت
- مقاطعة شروين
- مقاطعة دلدول
- مقاطعة الدغامشة
- مقاطعة تيبت
- مقاطعة السبع

بهذا المسح السريع للمجموعات الثلاث أردنا إعطاء نبذة عن هذه المناطق كما كانت قبل الاحتلال الفرنسي ، وحسب مصادر أجنبية ، والآن نقارن هذه المعطيات مع المعلومات المسجلة في «سجل قصور إقليم توات» الذي أصدرته المطبعة الملكية سنة 1962 وهو سجل مخزني يرجع تاريخه إلى عهد السلطان مولاي الحسن ، ويضم وثائق مختلفة عن إقليم توات . تغطي الفترة الممتدة من عهد مولاي إسماعيل إلى سنة 1309 هجرية (أي قبل سنتين ونصف من وفاة مولاي الحسن الأول) ويضم السجل أيضاً قائمة قصور أوقرى توات ، من تابلكوزة إلى فكارات الزوة ، أي الحدود الشمالية والشرقية فقط للواحات التواتية ، وهي المناطق المغربية المتاخمة للمستعمرات التركية في إفريقيا .

أما الحدود الغربية والجنوبية فلم يكن هناك داع لذكرها إذ لم تكن معرضة لأطماع جيرانها الأتراك ، ولم يذكر في الكناش المخزني إلا الحدان الشمالي والشرقي لاقليم توات لأنهما هما الحدان اللذان كانت تقع فيهما الاحتكاكات مع الولاة الأتراك بالجزائر وطرابلس ثم مع الولاة الفرنسيين بعد استيلائهم على الجزائر وتطلعهم إلى امتلاك الصحراء .

إن هذه المعطيات التاريخية المتعلقة بالأراضي التواتية لكل من تيديكلت وكورارة تمكن من تأكيد مغربية هذه المنطقة الجنوبية الشرقية بما لا يدع مجالاً للشك . فهذه المجموعة المؤلفة من أزيد من 300 قصر كانت تشكل الواحات الصحراوية وتؤلف جزءاً لا يتجزأ من التراب المغربي ، ولم تستقر هناك أية سيادة قط ، بما فيها سيادة أتراك الجزائر .

إن التاريخ التواتي مرتبط أشد الارتباط بتاريخ مجموع الصحراء المغربية المؤلفة من الأقطار الممتدة من عين صالح إلى الصحراء الغربية ، ومن المعلوم أن الملك المغربي يوسف بن تاشفين دخل حوالي سنة 1063 ميلادية (456 هـ) إلى كل من سجلماسة وتوات وكُورارة ثم دخلها الموحدون في القرن الثالث عشر الميلادي .

وقد حاول الأتراك الوصول إلى الواحات المذكورة ، ولكن السعديين في عهد أحمد المنصور ردوهم على أعقابهم وخاصة بعد النصر الكبير الذي أحرزه السعديون في وقعة وادي المخازن (986 هـ، غشت 1578 ميلادية) ، وبالامدادات العسكرية واستمرت الحالة خلال الملوك العلويين إلى ما بعد سنة 1667 .

وفي سنة 1679 وصلت جيوش السلطان مولاي إسماعيل ، مؤزرة بمحاربين من قبائل : دوي منيع ، والدخيسة وحميان و العمور وولاد جرير إلى جبل العمور ،

واتخذت من واد كير قاعدة لعملياتها ، لأجل حماية الجنوب الشرقي الصحراوي .

وهنا نشير إلى ما جاء في بعض المصادر الفرنسية التي تؤكد ارتباط المنطقة بالتراب المغربي والتي وردت فيها لائحة العمال المغاربة من 1692 إلى 1795 نجدها في كتاب مارتان «أربعة قرون من التاريخ المغربي» وكان توات وقتئذ إقليما راجعاً إلى سجلماسة (تافيلالت) . وبعد 1795 وحتى سنة 1820 كان توات وكورارة يتمتعان بشبه استقلال إداري ، وبقرار من السلطان مولاي سليمان بتاريخ 5 يوليوز 1800 حذفت وظيفة العامل وعوضت بثلاثة متصرفين للقيام بقضايا الضرائب الفلاحية والمتعلقة بالمياه ، وقد ألغيت الضرائب فيما بعد وذلك في سنة 1830 بعد منح الاستقلال الذاتي للواحات نظراً لحالة الجفاف والقحط التي تعرضت لها الواحات .

وفي سنة 1847 وقع احتلال (عسلة) كما تعرض قصر توات لهجوم جيش الجنرال كافينياك الذي خرب قصور مغرار تحتاني ومغرار فوقاني وتوجه الفرنسيون إلى إبراز سياسة الفرديات الموجهة نحو قبائل احميان الجنبة والعمور وذلك بتجزيء تلك القبائل وعزل بعضها عن بعض وإعطائها أسماء الفخدة وأسماء العائلات كي لا تثار هذه القضية من طرف المغرب خصوصا وقد ورد إسم هذه القبائل في معاهدة للامغنية (1845) . كانت الأوساط الاستعمارية تفكر في اتجاهين الاتجاه الأول وهو عدم إثارة مشكل الحدود كي لا يقع الدخول في المفاوضات وكي يبقى المجال مفتوحا لكل التوسعات المقبلة . والاتجاه الثاني يهم مشروع السكة الحديدية وإنجازها دون إثارة المشاكل الدبلوماسية .

«إن جوارنا يمنحنا كل وسائل العمل وستتفتت القبائل المغربية لتتركز عندنا فيما بعد ، وعندما يصل الخط الحديدي إلى جنوب عين الصفراء . فإن سكان فكيك سينتمون لنا أكثر من انتمائهم إلى سلطان المغرب وسيقتربون منا بسهولة وبسرعة خصوصا إذا تجنبنا ضم أراضيهم بكيفية عنيفة وسابقة لأوانها»

إن أول محاولة للتوغل في الجهة الجنوبية الشرقية بدأت في سنة 1856 وكانت متوجهة إلى ناحية شط تيكري وغدير المحروق بواحات كورارة ولكنها باءت بالفشل ورجعت القوات إلى مراكزها الأولى . وكانت محاولة أخرى سنة 1860 حيث توجهت القوات من جيرفيل Geryville إلى توات ولكنها تعرضت لمقاومة أولاد سعيد وجنود المخزن بتنميمون ورجعت على أعقابها .

وفي نفس السنة طلبت فرنسا من المغرب رخصة الاقامة بتوات لبعثة دوفريي

Duverier قصد البحث والاستكشاف حسب زعمها .

إن المغرب لم يترك أي فرصة تمر دون توجيه الاحتجاجات إلى فرنسا في هذا الموضوع وقد قام كذلك بنشاط سياسي هام لدى لندن ومدريد وبرلين وفيينا وروما لاثارة انتباههم لهذا المشكل .

ومعلوم أن احتلال الجزائر دفع ببعض المجاهدين إلى الالتجاء إلى أراضي مغربية بالتوات فكانوا يمكثون هناك لاستعادة قوتهم قبل استئناف مقاومتهم الغزاة الفرنسيين ... لهذا بدأ الفرنسيون ينتبهون إلى خطورة الموقف ويفكرون جديا في اتجاه نواحي توات التي صارت تعرقل سيرهم وتكون حاجزا منيعا لتوسعهم وسيطرتهم .

وما تعدد البعثات العلمية وأنشطتها بالمناطق الصحراوية إلا وسيلة لمساعدة التوغل الفرنسي ؛ ومشروع السكة الحديدية الصحراوية كان له أثر كبير على قضية الحدود وعلى السيادة المغربية على واحات توات؛ وفي هذه الفترة كثرت الأنشطة في المحافل الرسمية العسكرية والدبلوماسية .

وفي 1877 قدم المستر فرنوي أوراق اعتماده بفاس وتجنب قضية الحدود التي أثارها السلطان .

وفي سنة 1879 أسست اللجنة العليا لمشروع السكة الحديدية الصحراوية ولكنها لم تجد الحجج الكافية لثبوت توات كمنطقة خارجة عن السيادة المغربية ، وبما أن المشروع يشير إلى ضرورة المرور على هذه المنطقة فكرت اللجنة في إمكانية إيجاد حل لهذا المشكل وذلك للتوجه إلى المغرب بالطريقة الدبلوماسية للحصول على رخصة المرور لانجاز هذا الخط (1897 Lamartinière et lacroix)

1881 : اتفاقية مدريد . صار المغرب مبررا للاهتمامات الدولية كما هو الشأن بالنسبة لتونس وليبيا ولذلك بدأت إسبانيا تظهر بمواقف الذي ينتظر حقه في الارث ، وبعد 1880 استأنفت فرنسا نشاطها الاستعماري بالاستيلاء على الكونغو (1879 – 1885) وتونس (1881) وأنّام (1883) .

إن احتلال الفرنسيين لعين الصفراء سنة 1881 أثارت ضدهم جميع قبائل الجنوب الشرقي المغربي : أزكر ، أو لمدن ، البرابش ، إيفوغا ، آيت عطا، تاجاكنت وقبائل «كير» التي أعلنت الجهاد ضد الكفار والافرنج والتي اجتمع ممثلوها بجنوب فجيج لأجل تنظيم المقاومة الشعبية .

يقول الوالي العام الفرنسي للجزائر سنة 1881 حول مشاريع مد خط سكة الحديد الصحراوية الكبرى ، الذي يوجد من بينها مشروع الانطلاقة من إقليم وهران إلى عين صالح ، مروراً بإيكلي والساورة والتوات :

«إن خط وهران — عين صالح هو خط استراتيجي بالأولوية ، إذ.سيلغي نشاط قصور فجيج ذات القبائل المحاربة القوية المتعددة البربرية التي تترحل ما بين فجيج إيكلي ، وسيمكن هذا الخط أيضا من وضع حد لغزوات أولاد سيدي الشيخ ومن تحطيم نفوذهم بكورارة وتوات كما أنه سيتيح لنا استقطاب قبائل «طوارق أهجار» التي تتزود وتتاجر في عين صالح وبلاد ركان بالخصوص» .

وتوجهت فرنسا إلى الجهة الصحراوية وتوات لأنها اعتبرتها القاعدة الواحدة لعملياتها التوسعية وقد تجندت كل الجمعيات التي هي في خدمة العلوم الاستعمارية وقامت بحملة كبرى لدى الرأي العام مشيرة إلى الدور الهام لفرنسا فيما يخص توزيع الممتلكات الافريقية بين الدول الأوروبية .

ونظرا لأهمية الموقع التجاري والمواصلات لاقليم توات الغني بالواحات المثمرة الرابط بين مختلف أقطار شمال ووسط وغرب القارة الافريقية ، فإن القوات الفرنسية المرابطة بالجزائر خططت في أواسط الربع الأخير من القرن المنصرم لاحتلال كل من توات وعين صالح في الجنوب الشرقي المغربي .

وحين بدأت قوات الاحتلال تنفذ خطة إنشاء مركز عسكري بتوات قام سكان فجيج يحتجون عليها ، وأرسلوا وفدا إلى السلطان وعندئذ قرر الفرنسيون طرد قبائل العمور المقاومة التي كانت لجأت إلى المرتفعات وخاصة جبل بني سمير . وفي تاريخ 20 مارس 1882 أصدر الجنرال صوصيي قراراً بإنشاء دائرة عين الصفراء المتضمنة لقصور عسلة ، تيوت ، عين الصفراء ، عين صفيصفة مغرار فوقاني مغرار تحتاني ، وذلك من دون ذكر لأسماء القبائل الثلاث : أولا بوبكر ، أولا سليم ، السواعلة ، وكلها قبائل العمور . وخلال هذه الغزوة تم اعتقال عدد من شيوخ قصر مغرار الفوقاني ونفيهم إلى جزيرة كورسيكا . (Corse) وصودرت أملاكهم ونهبت خيرات جميع القصور . وفي سنة 1882 طلب الغزاة الفرنسيون من سلطان المغرب الترخيص لهم بشق الطريق الصحراوية الكبرى عبر الواحات التواتية فقام السلطان مولاي الحسن يوم 5 غشت 1884 بتوجيه إنذار إلى السلطات الفرنسية مؤكدا أن الواحات الكبرى الثلاث تيدكلت وكورارة وتوات هي جزء لا يتجزأ من التراب المغربي ، وبعد سنة من ذلك انطلق الضابط «بالات» بفرقة عسكرية من الكليعة

في اتجاه كورارة الجنوبية وأوكروت ولكنه قتل في معركة أثناء الطريق .

وبعد احتلال عين الصفراء (سنة 1881) جاء دور جنان بورزق الذي احتله الجيش الفرنسي ورفعت احتجاجات صارمة وطرحت القضية على الحكومة الفرنسية في جلسة 8 مايو سنة 1885 علما منها بأن هذا التراب يقع تحت السيادة المغربية ، وقد أصدر أمر بوقف بناء مركز بورزق وانسحبت القوات الفرنسية من عين المكان . وفي 23 مايو من سنة 1887 (أي بعد سنتين) أمر وزير الخارجية الفرنسي باستئناف العمل لبناء المركز المذكور ورغم كل الاحتجاجات المغربية ، وقام السكان بإرسال وفد إلى السلطان بقيادة مولاي علي بن إسماعيل شيخ زاوية كنتة للاحتجاج على الوجود الفرنسي بالكليعة وطالبت الحكومة المغربية بإعادة جميع المقاومين المغاربة الذين نفتهم فرنسا إلى جزيرة كورسيكا سنة 1882 ، كما سبقت ذكره .

وألح الفرنسيون في طلب الرخصة لفتح الطريق الصحراوية عبر منطقة توات ، ولكن السلطان مولاي الحسن رفض طلبهم ، واستمر هؤلاء في محاولاتهم التوسعية حين اقترح الجنرال الفرنسي ميريبيل MIRIBEL فصل الواحات الجنوبية الشرقية عن التراب المغربي وذلك باحتلال كورارة ووادي زوزفانة و إيكلي ووادي الساورة ، لكن الحكومة الفرنسية لم تعط موافقتها على هذا المشروع (سنة 1890) معلنة أن هذا الاقتراح سابق لأوانه وأن الظروف غير مناسبة لهذه العمليات العسكرية . وفي نفس السنة أبرم الفرنسيون والانجليز اتفاقية لتقسيم مناطق النفوذ في القارة الافريقية ، وبعد ذلك بسنة واحدة (1891) طلب السلطان مولاي الحسن من فرنسا أن تشرع في ضبط الحدود بصفة نهائية بين المناطق الجزائرية المحتلة والمناطق المغربية الجنوبية الشرقية ، ورفضت فرنسا هذا الطلب لأنها كانت تنوي القيام بسلسلة من الغزوات العسكرية تستهدف من ورائها احتلال عين صالح .

كانت بريطانيا تعارض فرنسا في مبدإ ضم منطقة توات إلى القطر الجزائري المحتل لعلمها أن ذلك سيلحق أضراراً بالنشاط التجاري البريطاني القائم بإفريقيا .

في غشت 1891 لجأ السلطان مولاي الحسن إلى مطالبة الحكومات الموقعة على مذكرة مارس 1887 (إسبانيا وإيطاليا وبريطانيا) المتعلقة باستمرارية السيادة المغربية على الصحراء الجنوبية الشرقية باستعمال الطرق الدبلوماسية من أجل إيقاف الضغوط العسكرية والأطماع الفرنسية ، وجاء التأكيد البريطاني بالطابع المغربي الخالص لاقليم توات كما أكدت معارضتها الصارمة لاقتطاع هذا الاقليم المغربي من طرف فرنسا .

وكان موقف الحكومة الاسبانية في نفس الاتجاه (23 أكتوبر 1891) أما فرنسا فلم تكف عن محاولاتها التوسعية بل كانت ترسم الخطة لاجتياح الواحات التواتية إما من جهة إيكلي ووادي الساورة أو من جهة الكليعة ، التي تم احتلالها سنة 1890 . أما مشروع إيكلي فقد اعتمد على التسهيلات التي يتيحها وجود مشروع السكة الحديدية بالجنوب ولكون إيكلي تتحكم وتراقب الطرق المؤدية إلى وادي الساورة . وأما مشروع الكليعة فكان يرمي إلى هدفين :

1 - تيميمون وعين صالح

2 - خفض النفقات العسكرية من مليونين ونصف من الفرنكات لمشروع إيكلي إلى مليون ونصف .

ثم أجلت وزارة الحرب الفرنسية هذين المشروعين من أجل الشروع أولا في مد خط السكة الحديدية من عين الصفراء إلى جنان بورزق ، ووقع الاختيار على مشروع الكليعة سنة 1893 ثم صدر أمر بإيقاف هذه العمليات بسبب اشتداد المقاومة المغربية قرب حدود مليلية ضد قوات الاحتلال الاسبانية .

وقد قام الفرنسيون بتشديد حصني «ماك ماهون» و «ميربيل» ما بين سنتي 1893 و 1896 وبتدعيم قواتهم بالصحراء وبعد ذلك حاولوا القيام بهجوم آخر سنة 1896 إلا أنه تم تأجيله بعد تعرض الجيش الفرنسي لعمليات المقاومة في كل من مدغشقر وسيام والهند الصينية .

وفي سنة 1896 (بعد سنتين من وفاة مولاي الحسن الأول) كلف الباشا الحاج أحمد بن رزوق الذي كان مقيما بتيميمون بتنظيم المناطق الصحراوية في الجنوب الشرقي .

كانت عين صالح تشكل في نظر السلطات الاستعمارية الفرنسية نقطة ارتكاز هامة متقدمة تسهل الاستيلاء التام على واحات تيديكلت وكورارة وتوات ، وكانت فرنسا تدعي إزاء مخاطبيها من الأجانب أن تدخلها العسكري في هذه المناطق يقتصر على المستوى التجاري فقط وأن هدفها هو حماية وتأمين طرق القوافل التجارية الرابطة بين الجزائر والسودان (السنيغال ومالي والنيجر) ومد خط للسكة الحديدية «لفائدة كل من المغرب وفرنسا» .

وفي شهر نونبر 1899 خيمت فرقة عسكرية فرنسية على بعد 30 كلم فقط شرقي عين صالح ، قرب كل من إيقوسطن والواحة الصغيرة «فكارات أولاد

باجودة» ولم يكد ينتهي شهر دجنبر حتى اجتاح الفرنسيون القصر الكبير وقصر دغامشة (من واحات عين صالح) ، وفي أواخر فبراير من سنة 1900 هب قائد تيمي السيد : إدريس بن القري الشرادي لرد المعتدين الفرنسيين فحل بتيدكلت على رأس وحدات من القوات المغربية مجندة من القصور الرئيسية حيث نظم وسائل الدفاع على الفور في قصبتي هادكة وأولاد أحمد بنجلون بينما لجأ الأطفال والنساء إلى المساجد و «الفكاكير» يحتمون في حضنها . لكن قوة المدافع الفرنسية وكثرة المرتزقة تغلبت على المقاومة المغربية التي لم تكن تتوفر إلا على أسلحة بدائية بالنسبة لما كانت تتوفر عليه القوات الفرنسية ووقع في الأسر كلا من باشا تيمي وعدد من الأعيان وصادر الغزاة جميع مراسلات السلطات المغربية وتابعت واحات : تيط وأقابلي وأولف المقاومة إلى حدود أواخر شهر مارس لسنة 1900 .

وسقطت إيكلي يوم 5 أبريل 1900 وتيميمون يوم 26 ماي من نفس السنة .

وفي يوم 23 يونيو 1902 صدر قرار فرنسي يقضي بإنشاء «منطقة الواحات الصحراوية» تتضمن ملحقات كل من توات وكورارة وتيدكلت ، وتمم قانون 1902 بقرار 14 غشت 1905 (أقاليم الجنوب) الذي ينص فصله الأول على أن : أقاليم الجنوب مقسمة إلى أربعة :

1 - إقليم عين الصفراء

2 - إقليم الواحات

3 - إقليم غرداية

4 - إقليم توكورت

ثم صدر قرار 12 دجنبر 1905 بتحديد كل إقليم .

وبعد اجتياح الواحات التواتية استغلت القوات الاستعمارية الفرنسية فرصاً أخرى ، فعبرت أودية الزوسفانة سنة 1904 وتوجهت نحو وادي كير قبل أن تجتاح مجموع الجنوب المغربي فيما بعد

التنظيم المشترك للمناطق الصحراوية

أنشئت قيادة المناطق المغربية الجزائرية المتجاورة بقرار فرنسي مؤرخ في 5 يونيو سنة 1949 ، وتم إلغاؤها يوم 18 فبراير سنة 1956 أي في السنة الأولى من الاستقلال .

وبقرا صدر يوم 5 يوليوز 1951 أنشئت «المنطقة الاستراتيجية لافريقيا الوسطى» الهدف منها هو «دراسة قضايا زمن الحرب في انعكاساتها على الأراضي الداخلية في المنطقة الاستراتيجية ، على المستوى المحلي ..»
ذلك أن الفرنسيين كانوا استشعروا أخطاراً (من احتمال ظهور حركات تحرير وطنية) ففكروا في إعادة تنظيم عسكري واقتصادي لأجل المحافظة على مستعمراتهم الصحراوية . عندئذ طرحت بإلحاح مسألة ضبط الحدود الترابية لتحويط هذه البقعة الصحراوية الافريقية الشاسعة الأطراف .

وعمدت السلطات الفرنسية إلى إشراك بلدان أوروبية في استغلال ثروات الصحراء ، وتمت المصادقة سنة 1952 على قانون : «التنسيق بين البلدان الأعضاء للمجلس الأوروبي وبلدان ما وراء البحار التي تربطها بها روابط دستورية ...» وجرى إنشاء مناطق صناعية إفريقية لقطاعات : تندوف وبشار ومستعمرات أخرى ... ومن بين مشاريع الاخضاع النهائي للصحراء التي طرحت عندئذ ، مشروع «الفرنسة الكاملة» لمجموع الصحراء الافريقية وإلحاقها النهائي بالتراب الفرنسي .

وقد اعتبر معظم رجال السياسية الفرنسيين ، إذ ذاك أقاليم الصحراء «أراضي غير تابعة للملكية أي طرف ، تقطنها قبائل صعاليك لا تكف عن السطو والاغارة على أي كان» أي أنه بحكم ذلك يجوز الاستيلاء عليها وتطويعها وتمدينها .

يقول المؤلف «ستراسر» في كتابه : « حقائق وآفاق صحراوية» 1956 أن : «أقاليم الجنوب ألحقت بتراب الجزائر بقرارات فرنسية مثلها في ذلك مثل الأراضي الصحراوية لبقية المستعمرات الفرنسية في افريقيا المتاخمة لمناطق الصحراء الوسطى والغربية .. هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نتوقع بدون سخط أو تخوف أن نرى السكان الصحراويين لهذه الأقاليم يطالبون بتقرير مصيرهم بأنفسهم ..» (بمعنى أن السلطات الاستعمارية كانت تخطط عند الاقتضاء لانشاء دويلات صحراوية للمزيد من التجزئة والتفريق في صفوف الشعوب المستعمرة والشعوب التي يحتمل أن تحصل على استقلالها) .

وكانت صعوبة ضبط الحدود الادارية لهذه الأقاليم الصحراوية تقف دائما حجر عثرة في محاولات تحقيق هذه التجزئة وقدمت بهذا الصدد عدة اقتراحات للنظر في «الحدود الترابية الشمالية للصحراء الفرنسية : حدود مع التراب الاسباني ، وحدود جزائرية – مغربية ، وحد شمالي لأقاليم الجنوب الجزائري ، وحدود مع

تونس وحدود مع ليبيا ..»

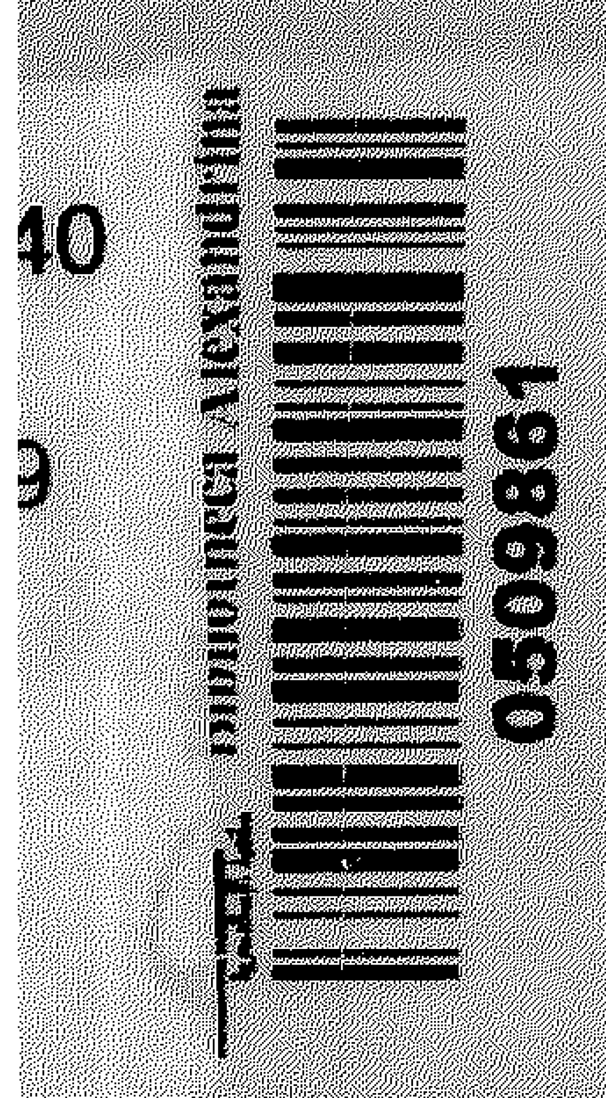
ومن ناحية التنظيم الاقتصادي كان من بين الاقتراحات إحداث هيئة «المنظمة الاقتصادية الصحراوية» تتكون من رئيس يعينه رئيس الجمهورية الفرنسية ونائبين للرئيس يعينان باتفاق مشترك لمختلف الحكومات شريطة أن يكون أحدهما مواطنا لدولة غير الدولة الفرنسية ... ونص هذا المشروع فيما يخص «لجنة المراقبة» (للمنظمة الاقتصادية الصحراوية) على أن تتألف هذه اللجنة من 20 ممثلا للسكان الصحراويين : 5 ممثلين للصحراء المغربية و3 للصحراء التونسية وأن يتألف ال 20 ممثلا الآخرون للجمعيات العمومية للدول المشاركة من : 3 للجمعية المغربية و1 للجمعية التونسية و3 للجمعية الجزائرية .

وصادق مجلس الوزراء الفرنسي يوم فاتح غشت 1956 على مشروع إعادة تنظيم اقتصادي ، بدل مشروع إعادة تنظيم إداري ... ومن ثم شمل «التنظيم المشترك للمناطق الصحراوية» الذي أنشأه قانون 10 يناير 1957 إضافة إلى الصحاري الجنوبية : المنطقة الصحراوية لدوائر ، تنبكتو وكاو (السودان) والمنطقة الصحراوية لدوائر : أغادس ودائرة بيلما (النيجر) ودائرة بوركو ودائرة تيبستي (التشاد) .

وبعد عقد المعاهدة الفرنسية – الجزائرية ل 18 مارس 1962 اسندت برامج الاستثمار لهيئة تقنية «للتعاون الصحراوي» مؤلفة من 6 أعضاء جزائريين ، و 6 فرنسيين .

تلك كانت قصة بتر الصحراء الجنوبية الشرقية بما فيها واحات توات والمناطق المجاورة لها .

رقم الايداع القانوني : 1992/669
مطابع منشورات عكاظ
4 شارع الحسن الثاني الحي الصناعي فيثا
- يعقوب المنصور - الرباط



الثمن : 40 درهما